النبأ العظيم
نظرات جديدة في القرآن

الدكتور محمد عبد الله دراز
عضو كبار العلماء - سابقاً

تقديم

أ.د / إبراهيم الهدهد
رئيس جامعة الأزهر - سابقاً

الجزء الأول



مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية
تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م

رئيس التحرير

أ.د محمود حمدي زقزوق

مجلس التحرير

أ.د إبراهيم الهدهد   أ.د عبد الفتاح العواري   أ.د عبد المنعم فؤاد

مدير التحرير

أ. محمود الفشني



تقديم
في سيرة العلامة الدكتور/ محمد عبد الله دراز
عاشق القرآن الكريم

المولد وعهد البناء:

فـي الثامن من نوفمبـر ١٨٩٤م بمحلة دياي مركز دسـوق بمحافظة كفر الشـيخ استقبلت أسرة العالم الجليل الشـيخ عبد الله دراز شيخ علماء دمياط خلفـه علما وذكاء وعشـقا للكتـاب العزيز ابن أبيه محمد عبـد الله دراز، في أسـرة علمية باركها الانتساب للأزهر الشـريف، ووالده العالم كان محل ثقة الإمام محمد عبده لذا عهد إليه بمهمة الإشراف على المعهد الأزهري الجديد بالإسـكندرية اطمئنانا إلـى علمه وكفاءته، وله ـ رحمه الله ـ تعليقات نفيسـة على كتاب الموافقات في أصول الشـريعة للشـاطبي، وقد كان لهذه الأسـرة العريقة في العلم أبلغ الأثر في التكوين وحب العلم والجهاد في طلبه وخدمته.

وقـد تحقـق للوالد ما رجاه من الله في ولده محمـد، فحفظ القرآن العظيم صغيرا، ثم التحق بالأزهر الشـريف بمعهد الإسـكندرية عـام ١٩٠٥م، ونال الشهادة الثانوية بعد سبع سنوات عام ١٩١٢م، وكان ترتيبه الأول، ثم حصل على العالمية من الأزهر الشريف عام ١٩١٦م، وكان ترتيبه الأول.

رحلته إلى فرنسـا طلبـا للعلم: لم يكتف ـ رحمـه الله ـ بما حصله من علم فـي الأزهر الشـريف، فسـافر في بعثة إلـى السـوربون عـام ١٩٣٦هـ، بعد عشرين عاما من حصوله على العالمية، ومكث هناك حتى حصل على دكتوراه الدولـة، والعجيـب في أمره أنه كان يحق له آنذاك أن يسـجل دكتوراه الدولة، لكنـه رأى أن ذلك ليس مناسـبا فسـجل دكتوراه قبل الدكتوراه الرئيسـية في موضـوع بعنوان: المدخل لدراسـة القرآن الكريم ومن بعدها سـجل دكتوراه الدولة بعنوان: (دسـتور الأخلاق في القرآن الكريم) وقد حصل على دكتوراه

الدولة في الفلسفة من السوربون عام ١٩٤٧م، وعاد إلى الأزهر وقد جمع بين الثقافتين الإسلامية من ينبوعها الصافي الأزهر - حماه الله وحرسه - والثقافة الغربية، وقد درس هناك على يد أعلام المستشرقين من مثل: ليفي بروفنسال، لويس ماسينيون، لوسن.

عهد العطاء:

بعد حصوله على العالمية من الأزهر الشريف اختير للتدريس فيه بالقسم العالي بالأزهر عام ١٩٢٨م، ثم عين أستاذا للتفسير في كلية أصول الدين، وبعد عودته من فرنسا اشتغل بالتدريس في جامعة الأزهر، في كلية أصول الدين وكلية اللغة العربية بالقاهرة، وفي جامعة القاهرة، وفي كلية دار العلوم.

في عام ١٩٤٩م نال عضوية كبار العلماء، وفي عام ١٩٥٣م اختير عضوًا في اللجنة العليا لسياسة التعليم، كما اختير عضوا في المجلس الأعلى للإذاعة، وفي اللجنة الاستشارية الثقافية في الأزهر، مثّل مصر والأزهر في المؤتمرات الدولية والعلمية.

الصفات الشخصية للعالم الرباني الشيخ الدكتور/ محمد عبد الله دراز: كان الرجل ذا نفس أبية عزيزة، لم لا وهو ربيب بيت علم وكان ذا تقوى وورع، وفطنة، وذكاء، وحِلْم، وأناة، وتواضع، ووداعة، ووفاء، وجرأة، وإقدام، وشهامة، وصلابة في الحق، ولباقة حديث، ولين عريكة، وحدب على المرافقين هكذا وصفه معاصروه، وكان -رحمه الله- مثابرا على قراءة ستة أجزاء من القرآن كل يوم دون كلل أو ملل. وكان معظّمًا للقرآن، يسجد سجود التلاوة أثناء محاضراته في التفسير، ويطلب من طلابه الوضوء قبل بداية المحاضرة استعدادًا لذلك. وقد كتب عنه رفيق رحلته إلى المؤتمر الإسلامي بلاهور، الشيخ محمد أبو زهرة: «كان يؤمُّنا في صلاة العشاء، ثم يأوي كل منا إلى فراشه، ويأوي هو إلى صلاته وقرآنه. وكنت لا تراه إلا قارئا للقرآن أو مصليا، فالقرآن ملك لبه، وشغاف قلبه، كان شغله الشاغل، لا يكاد يُرى إلا وهو منكب على قراءته وتدبُّره، أو قائم يصلي به. وقد انصب اهتمامه العلمي على القرآن حصرًا، فلا يكاد يوجد له عمل علمي إلا والقرآن محوره ولبابه. وكان لا يستطيع كفكفة عشقه لكتاب الله وتعلقه القلبي به، فهو يتتبّع ألفاظ القرآن تتبع الوالِهِ، ويصفها بحق بأنها (حبات درية)».

من مواقفه الوطنية: للرجل مواقف مشهودة فقد طاف على السفارات الأجنبية بمصر إبان ثورة ١٩١٩م محاضرا باللغة الفرنسية التي أصر على تعلمها آنذاك ليشرح قضية بلاده أمام ممثلي الدول الغربية، كما عرف عنه تأييده لإلغاء المعاهدة المصرية الإنجليزية عام ١٩٥١م وكان ممن أسهموا في إعداد كتيبة طلبة الأزهر التي انخرطت في مقاومة القوات البريطانية بمنطقة قناة السويس.

ولم يهتم فقط بقضايا الوطن، وإنما كان مناصرا لقضايا الأمة؛ فعندما كان بفرنسا جهر بتأييده لحركات التحرر العربية: الفلسطينية والمغربية والجزائرية، وقد توطدت صلاته بوجه خاص مع جمعية العلماء الجزائريين حين شارك في الأنشطة الثقافية والدعوية التي قامت بها في باريس ومن خلالها تعرّف على مالك بن نبي الذي طلب منه أن يقدم لبعض كتاباته. كما تواصل دراز مع الإمام عبد الحميد بن باديس في الجزائر حين تدخل لدى الأزهر لقبول الطلبة الجزائريين بالجامعة العريقة.

عزة نفس وإباء: من مظاهر عزة نفسه دعمه العلني – وهو مقيم بفرنسا – لحركات التحرر في المغرب العربي الذي كانت فرنسا تحتله آنذاك. وحينما عُرض عليه أن يكون شيخا للأزهر قبل شيخ الأزهر الخضر حسين اشترط أن يتمتع الأزهر باستقلالية أكاديمية عن السلطة. ولما رُفض ذلك اعتذر دراز عن قبول المنصب، وأصرّ على رفضه له رغم المحاولات والعروض المتكررة.

منهجه العلمي: كان الشيخ دراز إماما من أئمة الوسطية، وقد تجلت وسطيته في تناوله لعدد من الثنائيات الكبرى التي حيرت الفكر الإسلامي واستنزفته. وهي: العقل والنقل، السنة والبدعة، الجبر والاختيار، السلم والحرب، العلم والدين، الخلق والقانون... إلخ. ولا يسمح المقام بأي بسط هنا، وإنما أنوه الآن ببعض إشاراته في مسألة العقل والنقل. فهو يرى أن «التمييز بين الخير والشر... إلهام داخلي مركوز في النفس الإنسانية قبل أن يكون شِرْعة سماوية». بيد أن الشرع الإلهي «يكمل الشرع الأخلاقي الفطري»، وهي تكملة ضرورية للفطرة الإنسانية التي تشوبها شوائبُ صادّةٌ

عـن الحق والخيـر ، أو ظلمات قائـدة إلى الحيـرة والاضطـراب . وبدون نور الوحي ، فإن البشر يظلون في صراع دائب حول تعريف الخير والشر «ولسوف تُقاوَم عقول بعقول ، كما تُقاوَم عواطف بعواطف» . وقد أفادنا تاريخ البشـرية بضـروب من هـذا التخبط لا حدود لها ، من تقشـف (النرفانـا) البوذية ، إلى إباحيـة الرواقية اليونانية . وهي كلها شـهود على أن نـور الوحي ونور الفطرة يجـب أن يظلا فرسـيْ رهان ، كمـا أراد لهما خالـق الشـريعة الفطرية ، منزل الشريعة السماوية .

مؤلفاته: اتسـمت مؤلفاتـه ـ رحمه الله ـ بدقة الفكـرة ، ورصانة العبارة ، وسلاسـة الأسـلوب ، وقوة الحجة ، وجمـال التعبير ، وهي جامعـة بين الإقناع والإمتاع ، وهي عاكسة لثقافة التكوين المركبة من ثقافة الأزهر وثقافة الغرب ، وهي على هذا النحو :

● مدخل إلى دراسة القرآن الكريم (حقائق تاريخية) : وهو الرسالة الفرعية لرسـالة دكتـوراه الدولـة وقد جعـل البـاب الأول للحقائق التاريخيـة الأولية ، والفصـل الأول منه بيَّن فيه حياة الرسـول قبل البعثة ، وهو مدخل تاريخي مهم جدا في إثبات صحة الوحي ؛ فالعناية بالمبلغ ذات اتصال وثيق بالبلاغ وإثبات حسن خلق المبلغ وصدقه تسري إلى التصديق بالبلاغ ، ثم جعل الفصل الثاني لجمـع نص التنزيـل ، بين فيـه طريقة الجمع وعرض شـبهات المستشـرقين وردهـا ، وفـي الفصل الثالث عرض لكيفيـة بلاغ القرآن إلـى العالم ، ودفع فيه ظلم الغرب في مقارنته بفتوحات الإسـكندر الأكبر ، ورد آراء علماء الغرب في كلامهم عن عوامل انتشار الإسلام ، كما دفع مقارنة المستشرقين بين الحروب الإسلامية وحروب حركة الإصلاح البروتستانتية ، والباب الثاني مدخل أخلاقي وأدبـي ، والباب الثالث مدخـل جدلي عن مصدر القرآن ، ثـم الخاتمة التي بين فيها أن الوحي نقطة تحول في علم الرسول لا في خُلُقه ، ثم قدم شهادة خصومه عن صدقه وإخلاصه إلى غير ذلك من النتائج الآخذة بناصيتي الإقناع والإمتاع .

● دستور الأخلاق في القرآن : والأصل باللغة الفرنسية وقد عرّبه المرحوم الأسـتاذ الدكتور / عبد الصبور شاهين وهي رسـالة دكتوراه الدولة ، وقد قارن فيها بين الأخلاق في الأديان السـماوية ، والفلسـفات ، ثم عرض ما في القرآن

لينتهي العقل الصحيح والفكر السديد إلى أن نظام الأخلاق في القرآن يتبوأ الموقع الأسمى الذي لا يدانيه موقع، وقد قدم خلالها رؤية متكاملة للنظرية الأخلاقية القرآنية في شقيها النظري والعملي. وقد استخلصت الشريعة الأخلاقية من القرآن في مجموعها، وقدمت مبادئها وقواعدها في صورة بناء نظري متماسك مستقل عن كل ما يربطه بالمجالات القريبة منه، وهو ما أحدث انتقالا بها من دائرة التعاليم الوعظية التي تستهدف تقويم السلوكيات إلى الدائرة المعرفية.

● الدين بحوث ممهدة لتاريخ الأديان: وهو كتاب متوسط الحجم، لكنه مهم جدا إذ يبين فيه أن الدين والبحث عن معبود ضرورة إنسانية، وفطرة ربانية، حتى الذين ينكرون وجود الله يلجئون إليه عند الشدائد، وهو كتاب ماتع ويعد هذا الكتاب أحد الكتب المركزية التي أثرت تأثيرا بالغا في الدراسات العربية عن حقيقة الدين وتاريخه، وهو من أبدع ما كتب حول مسائل فلسفة الدين.

● المختار من كنوز من السنة: كتاب عظيم اصطفى أربعين حديثا في أصول الدين، ثم حللها بما يكشف عن اقتدار لغوي وذوق بلاغي، واستيعاب عقدي فقهي، فكان الحديث الذي يصطفيه مائدة لكل ذلك يلتقط منه ويقدم للناس.

● ومن كتبه أيضا: من خلق القرآن - نظرات في الإسلام - أصل الإسلام - العبادات: الصلاة - الزكاة - الصوم - الحج - الصوم تربية وجهاد - زاد المسلم للدين والحياة.

بحوثه: له بحوث كثيرة منها: الربا في نظر القانون الإسلامي قدمه لمؤتمر الحقوق الدولي بباريس، ومبادئ القانون الدولي العام في الإسلام، وحول المؤتمرات العالمية للأديان وموقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها.

وفاته: لقي ربه وهو يؤدي رسالته في بلاغ الإسلام الحق للعالمين عام ١٩٥٨م في لاهور بباكستان بعدما ألقى بحثا بعنوان (موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها) فرضي الله عنه، وأسكنه فسيح الجنان[1].

---

(١) رجعنا في التقديم إلى كتب الشيخ وذاكرة الأزهر الشريف وموسوعة ويكيبيديا على الشبكة العنكبوتية تاريخ الدخول ٢٠١٨/٥/٣٠م.

هـذا الكتـاب: (النبأ العظيم): بدأ تأليفه فـي محاضرات ألقيت على طلبـة كلية أصول الدين إلى عام ١٩٣٣م ثم قطعته فترة البعثة (مايو ١٩٣٦م ـ ١٩٤٨م) ولم يخاطب به مؤلفه فئة بعينها، وإنما خاطب به الفطر السـليمة والحس المرهف والرغبة الصادقة، في الوصول إلى الحق في شأن هذا القرآن، وقـد جعلـه بحوثا عدة، البحـث الأول: في تحديد معنى القـرآن والفرق بينه وبيـن الحديـث القدسـي والنبوي، وقد ارتكـز في تحديد معنـى القرآن على الآيات الواصفة للكتاب العزيز، البحث الثاني: في بيان مصدر القرآن وإثبات أنه من عند الله بلفظه ومعناه، وأورد من القرآن نفسه ما يبين أن القرآن لا صنعة فيـه لمحمد ﷺ وقد رد شـبهات المعارضين على طريق الجـدل ردا مفحما، كما عرض أقوال المشـككين شرقا وغربا وأوسعها حجاجا، وفي كل ذلك لم يعـرض للقرآن في جوهره، بل كان قصارى ما صنعه أنه درس الطريق التي جاء منهـا، فما وجد مـن اعترافات صاحبه ولا في حياته الخلقية، ولا في وسـائله وصلاته العلمية، ولا في سائر الظروف العامة أو الخاصة التي ظهر فيها القرآن إلا شـواهد ناطقة بأن هذا القرآن ليس له على ظهر الأرض من تسـتطيع تنسبه إليـه غيـر الله، حتى لو وجـد ملقى في صحـراء لأيقن الناظر فيـه أن ليس من هذه الأرض منبعه ومنبته، وإنما كان من أفق السماء مطلعه ومهبطه، والبحث الثالث: عنوانه: القرآن معجزة لغوية بدأه بافتراضات سـتة لمن ينكر الإعجاز ثـم تناولها فرضا فرضا حتى قضى عليها، ثم شـفع ذلك في الجزء بتطبيقات بـذّ بهـا أهل البلاغة، وفتح مـن أكمام إعجاز القرآن البياني ما لم يسـبق إليه، وحسـبك مـا ذكره في بلاغـة الآيات التي تتحـدث في أمور لا مجـال للمجاز فيها، أحسـن الله للشـيخ بما نصح لكلام الله سـبحانه، وهذا هو الجزء الأول مـن الكتاب بين يدي القـارئ الكريم وصلى الله على سـيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته.

شرف بالتقديم أ. د/ إبراهيم صلاح الهدهد

-١-

(١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م)

(الحمـد لله) الـذي فضلنا بالقـرآن على الأمم أجمعيـن، وآتانا به ما لـم يؤت أحدًا من العالميـن: أنزله هداية عالمية دائمة وجعله للشـرائع السـماوية خاتمة، ثم جعل له من نفسه حجة على الدهر قائمة، والصلاة والسـلام على من كان خلقه القـرآن، ووصيته القـرآن، وميراثه القرآن، القائل: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» (صحيح البخاري).

اللهـم كما أعطيتنا حظا من وراثة هذا الذكر الحكيم فيسـرت علينا حفظـه وتذكره وحببـت إلينا تلاوته وتدبره نسـألك أن تجعلنا من خيار وارثيه الذين هم بهدايته مستمسـكون والذين هم على حراسـته قائمون والذين هم تحت رايته يوم القيامة يبعثون في جند إمامنا الأعظم ورسولنا الأكرم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأحبابه.

●●●

(أمـا بعـد) فهذه بحوث فـي القرآن الكريم قدمتهـا بين يدي دروس التفسـير لطلبـة كلية أصـول الدين بالجامـع الأزهر المعمـور أردت بها أن أنعـت كتـاب الله بحليته وخصائصه، وأن أرفـع النقاب عن جانب من الحقائق المتصلة به، وأن أرسم الخطة التي ينبغي سلوكها في دراسته.

وقـد راعيـت في أكثر هـذه البحوث شـيئًا مـن التفصيـل والتحليل وشـيئًا مـن التطبيق والتمثيل فلم أكتف بالإشـارة حيـث تمكن العبارة، ولا بالبرهـان إذا أمكـن العيان راجيًا بذلك أن تنفتح لهـا عيون الغافلين فيجـدوا نورهم يسـعى بيـن أيديهم وبأيمانهـم وأن تنشـرح بها صدور المؤمنين فيزدادوا إيمانًا إلى إيمانهم.

ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير.

١٣٥٢هـ - ١٩٣٣م

أ.د/ محمد عبد الله دراز

- ٢ -

(١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م)

كتـاب (النبـأ العظيم) مولـود جديد، قديم، جديـد في مقطعه ونهايتـه، قديـم في مطلعه وبدايته، كان مسـقط رأسـه فـي الحرم الجامعي منذ نيف وعشـرين عامًا ولكنه لم يبرز منه يومئذ إلا عنقه وصدره، أما أطرافه فلم تنشأ وأما خلقه فلم يكتمل إلا اليوم.

لقد شـهد طلاب الأمس بداية أمره حين كان يملي عليهم نجومًا متفرقة في فتـرات متلاحقة أو غير متلاحقة، وكانوا كلما اجتمعت منه صفحات معدودة لا تزيد عن عقد وبعض عقد اسـتعجلوا طبعها وجعلوا يستحثون همة المؤلف لوضع لاحقتها.

ثـم أتت بعد ذلك شـئون[٢] حالت دون إتمـام وضعه بله إكمال طبعـه، فبقي القدر الذي طبع منه حبيسًـا فـي دار الطبع أو مقصورًا علـى الرعيل الأول من طلاب هذا البحث، حتى أذن العلي القدير -

---

(٢) أمضـى المؤلـف في خارج القطر اثني عشر عامًا: من غـرة ربيع الأول ١٣٥٥ إلى سلخ ربيع الثاني ١٣٦٧ (مايو ١٩٣٦ - مارس ١٩٤٨) مبعوثًا من الجامعة الأزهرية إلى الجامعات الأوروبية فدرس هناك بضعة ألسن من لغة أهل الغرب وألم بمناهج علمائهم في البحـث ووضع هناك باللغة الفرنسية رسالتين جامعيتين: عن القرآن وعن دستور الأخـلاق في القرآن، ثم أمضى تسعة أعوام أخر بعـد عودته إلى مصر مشغولا بشئون علميـة نيطـت به على عجل من أهمها: ١ - محاضرات في علـم تاريخ الأديان بكلية الآداب بجامعة القاهرة. ٢ - محاضرات في فلسفة الأخلاق بقسم التخصص بالجامعة الأزهريـة. ٣ - تدويـن محاضراته هذه وتلك وإخراجهـا في رسالتين باللغة العربية، على أن المؤلف ما زال في أثناء هذه المشاغل كلها يعاوده الحنين إلى إكمال هذا الجزء ومـا برح في تلك الأثناء يتلقى من أبنائـه وزملائه الرسائل تلو الرسائل لمتابعة هذا البحـث ولكنـه لم ييسر له تحقيق بعض هذه الأمنيـة إلا الآن وسبحان من لا يشغله شأن عن شأن.

وكل شيء عنده بمقدار - أن يضيف المؤلف إليه اليوم خليات أخر اكتمل بها قوامه وأخذ بها أهبته للخروج من نطاق الثقافة الجامعية إلى فضاء الثقافة العالمية لكي يتحدث إلى كل عقل واع ناقد لا يأخذ ما يأخذ إلا على بصيرة وبينة، ولا يذر ما يذر إلا على بصيرة وبينة، وإلى كل وجدان تجريبي ذائق لا يكتفي بالخبر عن المعاينة، ولا يستغني بالوزن عن الموازنة.

إنه حديث يبدأ من نقطة البدء..

فلا يتطلب من قارئه انضواء تحت راية معينة، ولا اعتناقًا لمذهب معين، ولا يفترض فيه تخصصا في ثقافة معينة، ولا حصولًا على مؤهل معين، بل إنه يناشده أن يعود بنفسه صحيفة بيضاء إلا من فطرة سليمة، وحاسة مرهفة ورغبة صادقة في الوصول إلى الحق في شأن هذا القرآن.

وإنه إذن لواصل إن شاء الله

في شعبان سنة ١٣٧٦ (مارس ١٩٥٧)

أ.د/ محمد عبد الله دراز

البحث الأول
« في تحديد معنى القرآن »
« والفرق بينه وبين الحديث القدسي والنبوي »

القرآن في الأصل مصدر على وزن فعلان بالضم كالغفران والشكران والتكلان تقول : قرأته قرءًا وقراءة وقرآنًا بمعنى واحد أي تلوته تلاوة ، وقد جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدري في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾

(القيامة : ١٧ ، ١٨)

أي قراءته ثم صار علمًا شخصيًا[٣] لذلك الكتاب الكريم وهذا هو الاستعمال الأغلب ومنه قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ (الإسراء : ٩)

روعي في تسميته قرآنًا كونه متلوًا بالألسن كما روعي في تسميته كتابًا كونه مدونًا[٤] بالأقلام فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه .

---

(٣) يطلق بالاشتراك اللفظي على مجموع الكتاب وعلى كل قطعة منه فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن صح أن تقول إنه يقرأ القرآن. ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ ﴾ (الأعراف:٢٠٤)

(٤) هـذا بيان لوجه الصلة فيهما بين المعنى المنقول عنه والمعنى المنقول إليه وهو مبني على ما اشتهر من استعمال القراءة في خصوص التلاوة وهي ضم الألفاظ بعضها إلى بعض في النطق واستعمال الكتابة في خصوص الرسم وهو ضم بعضها إلى بعض في الخط فإذا رجعنا إلى أصلهما الأصيل في اللغة وجدنا مادتي « ك ت ب » و« ق رأ » تدوران على معنى الجمع والضم مطلقًا ويلمح هذا الأصل الأول بكون كل واحد من اللقبين ملاحظًا فيه وصف الجمع إما على معنى اسم الفاعل أو اسم المفعول فيكون معناه « الجامع » أو « المجموع » وهذا اللقب لا يعني فقط أن هذا المسمى جامع للسور =

وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعًا أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب المنقول إلينا جيلًا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقي القرآن محفوظًا في حرز حريز إنجازًا لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)

ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند حيث لم يتكفل الله بحفظها بل وَكَلَها إلى حفظ الناس فقال تعالى:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ ﴾ (المائدة: ٤٤)

أي بما طلب إليهم حفظه. والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب

=والآيات أو أنه مجموع تلك السور والآيات من حيث هي نصوص مؤلفة على صفحات القلوب أو من حيث هي نقوش مصفوفة في الصحف والألواح أو من حيث هي أصوات مرتلة منظومة على الألسنة بل يعني شيئًا أدق من ذلك كله وهو أن هذا الكلام قد جمع فنون المعاني والحقائق وأنه قد حشدت فيه كتائب الحكم والأحكام فإذا قلت الكتاب أو القرآن كنت كأنما قلت: «الكلام الجامع للعلوم» أو «العلوم المجموعة في كتاب» وهكذا وصفه الله تعالى إذ أخبر بأنه نزله ﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل: ٨٩) وكذلك وصفه النبي ﷺ حيث قال «فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم» رواه الترمذي.

السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد، وأن هذا القرآن جيء به مصدقًا لما بين يديه من الكتب ومهيمنًا عليها؛ فكان جامعًا لما فيها من الحقائق الثابتة، زائدًا عليها بما شاء الله زيادته، وكان سادًا مسدها، ولم يكن شيء منها ليسد مسده؛ فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة وإذا قضى الله أمرًا يسر له أسبابه وهو الحكيم العليم.

ولما كان القرآن بهذا المعنى الأسمى جزئيًا حقيقيًا كان من المتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص، وذلك شأن كل الجزئيات الحقيقية لا يمكن تحديدها بهذا الوجه؛ لأن أجزاء التعاريف المنطقية كليات، والكلي لا يطابق الجزئي مفهومًا؛ لأنه يقبل الانطباق على كل ما يفرض مماثلًا له في ذلك الوصف ذهنًا، وإن لم يوجد في الواقع فلا يكون مميزًا له عن جميع ما عداه فلا يكون حدًا صحيحًا.

وإنما يحدد الجزئي بالإشارة إليه حاضرًا في الحس أو معهودًا في الذهن.

فإذا أردت تعريف القرآن تعريفًا تحديديًا فلا سبيل لذلك إلا بأن تشير إليه مكتوبًا في المصحف أو مقروءًا باللسان فتقول: هو ما بين هاتين الدفتين.

أو تقول: هو ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

إلى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾

أما ما ذكره العلماء من تعريفه بالأجناس والفصول كما تعرف الحقائق الكلية فإنما أرادوا به تقريب معناه وتمييزه عن بعض ما عداه مما قد يشاركه في الاسم ولو توهما ؛ ذلك أن سائر كتب الله تعالى والأحاديث القدسية وبعض الأحاديث النبوية تشارك القرآن في كونها وحيًا إلهيًا ، فربما ظن ظان أنها تشاركه في اسم القرآن أيضًا فأرادوا بيان اختصاص الاسم به ببيان صفاته التي امتاز بها عن تلك الأنواع فقالوا :

« القرآن هو كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ المتعبد بتلاوته » .

« فالكلام » جنس شامل لكل كلام وإضافته إلى لفظ « الله » تميزه عن كلام من سواه من الإنس والجن والملائكة .

و« المنزل » مخرج للكلام الإلهي الذي استأثر الله به في نفسه أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد من البشر إذ ليس كل كلامه تعالى منزلًا بل الذي أنزل منه قليل من كثير :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ (الكهف : ١٠٩)

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ (لقمان : ٢٧)

وتقييد المنزل بكونه « على محمد » لإخراج ما أنزل على الأنبياء من قبله كالتوراة المنزلة على موسى ، والإنجيل المنزل على عيسى ، والزبور المنزل على داود ، والصحف المنزلة على إبراهيم –عليهم السلام – .

وقيد « المتعبد بتلاوته » أي المأمور بقراءته في الصلاة وغيرها على وجه العبادة ؛ لإخراج ما لم نؤمر بتلاوته من ذلك كالقراءات المنقولة إلينا بطريق الآحاد ، وكالأحاديث القدسية وهي المسندة

إلى الله – عز وجل – إن قلنا : إنها منزلة من عند الله بألفاظها .

أمـا الأحاديث النبوية فإنها بحسـب ما حوته من المعاني تنقسـم إلى قسـمين : «قسم توفيقي» استنبطه النبي ﷺ بفهمه في كلام الله أو بتأمله في حقائق الكون ، وهذا القسم ليس كلام الله قطعًا . و«قسم توقيفي» تلقى الرسـول ﷺ مضمونه من الوحي فبينه للناس بكلامه ، وهـذا القسـم وإن كان ما فيه من العلوم منسـوبًا إلـى معلمه وملهمه سـبحانه لكنه من حيث هو كلام حري بأن ينسـب إلى الرسول ﷺ ؛ لأن الكلام إنما ينسـب إلى واضعه وقائله الذي ألفه على نحو خاص ، ولو كان ما فيه من المعنى قد تواردت عليه الخواطر وتلقاه الآخر عن الأول فالحديث النبوي إذن خارج بقسـميه من القيد الأول[٥] في هذا التعريف وكذلك الحديث القدسي إن قلنا إنه منزل بمعناه فقط .

وهذا هو أظهر القولين فيه عندنا ؛ لأنه لو كان منزلًا بلفظه لكان له من الحرمة والقدسـية في نظر الشـرع ما للنظم القرآني إذ لا وجه للتفرقـة بين لفظيـن منزلين من عند الله فكان من لوازم ذلك وجوب المحافظة على نصوصه وعدم جواز روايته بالمعنى إجماعًا : وحرمة مس المحـدث لصحيفته ولا قائل بذلك كله ، وأيضًا فإن القرآن لما كان مقصـودًا منـه مـع العمل بمضمونه شـيء آخر ، وهـو التحدي بأسـلوبه والتعبد بتلاوته احتيج لإنزال لفظه ، والحديث القدسي لم ينـزل للتحـدي ولا للتعبد بل لمجـرد العمل بما فيه وهـذه الفائدة تحصـل بإنزال معنـاه ، فالقول بإنزال لفظه قول بشـيء لا داعي في النظر إليه ولا دليل في الشـرع عليه ، اللهم إلا ما قد يلوح من إسناد الحديث القدسـي إلى الله بصيغة «يقول الله تبارك وتعالى كذا» لكن القرائـن التـي ذكرناها آنفًـا كافية في إفسـاح المجـال لتأويله بأن

---

(٥) وهو كون الكلام كلام الله.

المقصود نسبة مضمونه لا نسبة ألفاظه.

وهـذا تأويل شـائع في العربية فإنـك تقول حينما تنشـر بيتًا من الشـعر «يقول الشـاعر كذا» وتقول حينما تفسـر آية من كتاب الله بـكلام من عنـدك: «يقول الله تعالى كذا» وعلى هـذه القاعدة حكى الله تعالى عن موسى وفرعون وغيرهما مضمون كلامهم بألفاظ غير ألفاظهم وأسلوب غير أسلوبهم ونسب ذلك إليهم.

فإن زعمت أنه لو لم يكن في الحديث القدسـي شيء آخر مقدس وراء المعنى لصح لنا أن نسـمي بعض الحديث النبوي قدسـيًا أيضًا لوجـود هذا المعنى فيه فجوابه أننا لما قطعنا في الحديث القدسـي بنـزول معناه لورود النص الشـرعي على نسـبته إلـى الله بقوله ﷺ «قال الله تعالى كذا» سـميناه قدسيًا لذلك بخلاف الأحاديث النبوية فإنها لما لم يرد فيها مثل هذا النص جاز في كل واحد منها أن يكون مضمونـه معلمًا بالوحـي، وأن يكون مسـتنبطا بالاجتهـاد والرأي فسـمي الـكل نبويًا، وقوفًا بالتسـمية عنـد الحد المقطـوع به ولو كانت لدينا علامة تميز لنا قسم الوحي لسميناه قدسيًا كذلك.

على أن هذا الامتياز لا يؤدي إلى نتيجة عملية فسـواء علينا عند العمل بالحديث أن يكون من هذا القسم أو من ذاك إذ النبي ﷺ في تبليغه صادق مأمون وفي اجتهاده فطن موفق وروح القدس يؤيده فلا يقـره علـى خطأ إن أخطأ في أمر من أمور الشـريعة فـكان مرد الأمر فـي الحقيقة إلـى الوحي في كلتا الحالتين إمـا بالتعليم ابتداء، وإما بالإقرار أو النسخ انتهاء؛ ولذلك وجب أن نتلقى كل سنته بالقبول ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ (الحشر: ٧) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ﴾ (الأحزاب: ٣٦)

البحث الثاني

« في بيان مصدر القرآن »

« وإثبات أنه من عند الله بلفظه ومعناه »

لقـد علـم الناس أجمعون علمًـا لا يخالطه شـك أن هذا الكتاب العزيز جاء على لسـان رجل عربي أمي ولد بمكة في القرن السادس الميـلادي . اسـمه محمد بن عبد الله بن عبـد المطلب ، صلوات الله وسـلامه عليه وعلى آله ، هذا القدر لا خلاف فيه بين مؤمن وملحد ، لأن شهادة التاريخ المتواتر به لا يماثلها ولا يدانيها شهادته لكتاب غيره ولا لحادث غيره ظهر على وجه الأرض .

أما بعد ، فمن أين جاء به محمد بن عبد الله ﷺ ؟ أمن عند نفسـه ومن وحي ضميره ، أم من عند معلم ؟ ومن هو ذلك المعلم ؟ نقرأ في هـذا الكتاب ذاته أنه ليـس من عمل صاحبه ، وإنما هو قول رسـول كريـم ، ذي قـوة عند ذي العـرش مكين ، مطاع ثم أميـن : ذلكم هو جبريل – عليه السلام – ، تلقاه من لدن حكيم عليم ، ثم نزله بلسان عربـي مبيـن على قلـب محمد ﷺ ، فتلقنـه محمد منـه كما يتلقن التلميذ عن أستاذه نصًا من النصوص ، ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلـك إلا : (١) الوعي والحفظ ثم (٢) الحكاية والتبليغ ، ثم (٣) البيان والتفسير ، ثم (٤) التطبيق والتنفيذ .

أمـا ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منها بسـبيل ، وليس له من أمرهما شيء ، إن هو إلا وحي يوحى .

هكذا سماه القرآن حيث يقول :

﴿ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ ﴾

(الأعراف : ٢٠٣)

ويقول :

﴿ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ ﴾

(يونس : ١٥)

وأمثال هذه النصوص كثير في شـأن إيحـاء المعاني ثم يقول في شأن الإيحاء اللفظي :

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾

(يوسف : ٢)

﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾

(الأعلى : ٦)

﴿ لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴾ (القيامة : ١٦ - ١٩)

﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ (العلـق : ١) ﴿ وَٱتۡلُ ﴾ (الكهـف : ٢٧) ﴿ وَرَتِّلِ ﴾ (المزمل : ٤)

فانظـر كيف عبر بالقراءة والإقراء. والتلاوة والترتيل، وتحريك اللسـان، وكون الكلام عربيًـا، وكل أولئك من عـوارض الألفاظ لا المعاني البحتة.

القرآن إذن صريح في أنه «لا صنعة فيه لمحمد ﷺ ولا لأحد من الخلق، وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه».

والعجـب أن يبقـى بعـض الناس فـي حاجة إلى الاسـتدلال على

الشطر الأول من هذه المسألة، وهو أنه ليس من عند محمد.

في الحق أن هذه القضية لو وجدت قاضيًا يقضي بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل، ذلك أنها ليست من جنس «الدعاوى» فتحتاج إلى بينة، وإنما هي من نوع «الإقرار» الذي يؤخذ به صاحبه، ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه، إن أي مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة، نقول أي مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره، وينسلخ منها انسلاخًا؟ على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدًا يعارضه ويزعمها لنفسه.

الذي نعرفه أن كثيرًا من الأدباء يسطون على آثار غيرهم فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله وغلت قيمته وأُمنت تهمته، حتى إن منهم من ينبش قبور الموتى ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه في زينة من تلك الأثواب المستعارة، أما أن أحدًا ينسب لغيره أنفس آثار عقله وأغلى ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلده الدهر بعد.

ولو أننا افترضناه افتراضا لما عرفنا له تعليلًا معقولًا ولا شبه معقول اللهم إلا شيئًا واحدًا قد يحيك في صدر الجاهل، وهو أن يكون هذا الزعيم قد رأى أن في «نسبته القرآن إلى الوحي الإلهي» ما يعينه على استصلاح الناس باستيجاب طاعته عليهم ونفاذ أمره فيهم؛ لأن تلك النسبة تجعل لقوله من الحرمة والتعظيم ما لا يكون له لو نسبه إلى نفسه.

وهذا قياس فاسد في ذاته، فاسد في أساسه.

أما أنه فاسد في ذاته فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه والكلام المنسوب إلى الله تعالى فلم تكن نسبته ما نسبه إلى نفسه بناقصة من لزوم طاعته شيئًا، ولا نسبة ما نسبه إلى ربه بزائدة فيها شيئًا، بل استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء فكانت حرمتهما في النفوس على سواء، وكانت طاعته من طاعة الله، ومعصيته من معصية الله فهلا جعل كل أقواله من كلام الله تعالى لو كان الأمر كما يهجس به ذلك الوهم.

وأما فساد هذا القياس من أساسه فلأنه مبني على افتراض باطل، وهو تجويز أن يكون هذا الزعيم من أولئك الذين لا يأبون في الوصول إلى غاية إصلاحية أن يعبروا إليها على قنطرة من الكذب والتمويه وذلك أمر يأباه علينا الواقع التاريخي كل الإباء، فإن من تتبع سيرته الشريفة في حركاته وسكناته، وعباراته وإشاراته، في رضاه وغضبه، في خلوته وجلوته لا يشك في أنه كان أبعد الناس عن المداجاة والمواربة، وأن سره وعلانيته كانا سواء في دقة الصدق وصرامة الحق في جليل الشئون وحقيرها، وأن ذلك كان أخص شمائله وأظهر صفاته قبل النبوة وبعدها كما شهد ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه (٦) إلى يومنا هذا:

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: ١٦)

---

(٦) اقرأ مثلا ما كتبه توماس كارليل الإنجليزي في كتاب الأبطال، وما كتبه الكونت هنري دي كاستري الفرنسي في خواطره وسوانحه عن الإسلام ثم اقرأ شهادة قريش التي سجلها أبو سفيان وهو في الجاهلية بين يدي هرقل عظيم الروم لما سألهم هرقل هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا وسألهم هل يغدر قال: لا. أخرجه الشيخان.

وكأنـي بك هاهنا تحـب أن أقدم لك من سـيرته المطهـرة مُثُلًا واضحة الدلالة على مبلغ صدقه وأمانته في دعوى الوحي الذي نحن بصدده، وأنه لم يكن ليأتي بشيء من القرآن من تلقاء نفسه، فإليك طرفًا من ذلك:

-١-

لقد كانت تنزل به نوازل من شأنها أن تحفزه إلى القول، وكانت حاجتـه القصوى تلح عليـه أن يتكلم بحيث لو كان الأمر إليه لوجد لـه مقالًا ومجالًا، ولكنه كانت تمضي الليالي والأيام تتبعها الليالي والأيام ولا يجد في شأنها قرآنًا يقرؤه على الناس.

ألـم يرجـف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشـة – رضي الله عنهـا– وأبطأ الوحي، وطال الأمر والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس: «إنـي لا أعلـم عنها إلا خيـرًا» ثم إنه بعد أن بـذل جهده في التحري والسـؤال واستشارة الأصحاب، ومضى شهر بأكمله والكل يقولون مـا علمنـا عليها من سـوء، لم يزد علـى أن قال لها آخـر الأمر: «يا عائشـة أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسـيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله».

هـذا كلامـه بوحي ضميره، وهـو كما ترى كلام البشـر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصديق المتثبت الذي لا يتبع الظن ولا يقول ما ليـس له به علم. على أنه لم يغادر مكانـه بعد أن قال هذه الكلمات حتـى نزل صدر سـورة النور معلنًا براءتها، ومصـدرًا الحكم المبرم بشرفها وطهارتها. الحديث أخرجه الشيخان وغيرهما.

فمـاذا كان يمنعه – لو أن أمر القرآن إليه– أن يتقول هذه الكلمة

الحاسـمة من قبل ليحمي بها عرضه ويذب بها عن عرينه وينسـبها إلى الوحي السماوي لتنقطع ألسنة المتخرصين ؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله :

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾

(الحاقة : ٤٤ - ٤٧)

-٢-

وأخرى كان يجيئه القول فيها على غير ما يحبه ويهواه . فيخطئه في الرأي يراه ويأذن له في الشيء لا يميل إليه . فإذا تلبث فيه يسيرًا تلقاه القرآن بالتعنيف الشديد ، والعتاب القاسي ، والنقد المر ، حتى في أقل الأشياء خطرًا :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾

(التحريم : ١)

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾

(الأحزاب : ٣٧)

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾

(التوبة : ٤٣)

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾

(التوبة : ١١٣)

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(الأنفال : ٦٧ ، ٦٨)

﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾

(عبس : ٥ - ١٠)

أرأيت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه، معبرة عن ندمه ووخز ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه. أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه، واستبقاء لحرمة آرائه؟ بلى إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم شيئًا من ذلك الوجدان. ولو كان كاتمًا شيئًا لكتم أمثال هذه الآيات. ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانه:

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ (التكوير : ٢٤)

وتأمل آية الأنفال المذكورة، تجد فيها ظاهرة عجيبة، فإنها لم تنزل إلا بعد إطلاق أسارى بدر وقبول الفداء منهم، وقد بدئت بالتخطئة والاستنكار لهذه الفعلة، ثم لم تلبث أن ختمت بإقرارها وتطبيب النفوس بها، بل صارت هذه السابقة التي وقع التأنيب عليها هي القاعدة لما جاء بعدها، فهل الحال النفسية التي يصدر عنها أول هذا الكلام - لو كان عن النفس مصدره - يمكن أن يصدر عنها آخره ولمّا تمض بينهما فترة تفصل بين زمجرة الغضب والندم وبين ابتسامة الرضى والاستحسان؟ كلا، وإن هذين الخاطرين لو فرض صدورهما عن النفس متعاقبين لكان الثاني منهما إضرابًا عن

الأول ماحيًـا له، ولرجـع آخر الفكر وفقًا لما جـرى به العمل. فأي داع دعا إلى تصوير ذلك الخاطر الممحو وتسجيله، على ما فيه من تقريع علني بغير حق، وتنغيص لهذه الطعمة التي يراد جعلها حلالا طيبـة؟ إن الذي يفهمـه علماء النفس من قراءة هـذا النص أن هاهنا ألبتة شـخصيتين منفصلتين، وأن هذا صوت سيد يقول لعبده: لقد أسأت ولكني عفوت عنك وأذنت لك.

وأنت لو نظرت في هذه الذنوب التي وقع العتاب عليها لوجدتها تنحصـر في شـيء واحد، وهو أنـه عليه السـلام كان إذا ترجح بين أمريـن ولم يجـد فيهما إثمًا اختـار أقربهما إلى رحمـة أهله وهداية قومـه وتأليـف خصمه، وأبعدهما عـن الغلظة والجفـاء، وعن إثارة الشـبه في دين الله، لم يكن بين يديه نـص فخالفه كفاحًا، أو جاوزه خطأ ونسـيانًا، بل كل ذنبه أنه مجتهد بذل وسـعه في النظر، ورأى نفسـه مخيـرًا فتخير، هبه مجتهـدًا أخطأ باختيار خـلاف الأفضل. أليـس معذورًا ومأجورًا؟ على أن الذي اختاره كان هو خير ما يختاره ذو حكمـة بشـرية [٧] وإنما نبهه القرآن إلى ما هـو أرجح في ميزان الحكمـة الإلهية. هـل ترى في ذلك ذنبًا يسـتوجب عند العقل هذا التأنيـب والتثريـب؟ أم هو مقـام الربوبيـة ومقام العبودية، وسـنة العروج بالحبيب في معارج التعليم والتأديب؟

توفي عبـد الله بن أبيٍّ كبير المنافقين فكفنه النبي في ثوبه وأراد أن يسـتغفر له ويصلي عليه، فقال عمـر – رضي الله عنه –: أتصلي

---

(٧) ومـا كان اختيار عمر – رضي الله عنه – في مسألة الأسرى ونحوها إلا مظهرًا من مظاهر الشدة التي كانت أغلب على طبعه، وإن كادت هذه الشدة لتفتنه عن أمر الله يوم الحديبية كما سيجيء فكانت موافقته للوحي في تلك المسائل مصادفة للحكم من غير مقدماته الحقيقية التي انفرد بها علام الغيوب.

عليـه وقد نهاك ربك؟ فقـال ﷺ إنما خيرني ربي فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ (التوبـة: ٨٠) وسأزيده على السبعين وصلى عليه فأنزل الله تعالى:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ (التوبة: ٨٤)

فتـرك الصلاة عليهم – اقرأ هذه القصة الثابتة برواية الصحيحين وانظر ماذا ترى؟ – إنها لتمثل لك نفس هذا العبد الخاضع وقد اتخذ من القرآن دستورًا يستملي أحكامه من نصوصه الحرفية، وتمثل لك قلـب هذا البشـر الرحيم وقد آنس من ظاهـر[٨] النص الأول تخييرًا له بين طريقين فسـرعان ما سلك أقربهما إلى الكرم والرحمة، ولم يلجأ إلى الطريق الآخر إلا بعد ما جاءه النص الصريح بالمنع.

وهكذا كلما درسـت مواقف الرسول من القرآن في هذه المواطن أو غيرهـا تجلى لـك فيه معنـى العبودية الخاضعة ومعنى البشـرية الرحيمة الرقيقة، وتجلى لك في مقابل ذلك من جانب القرآن معنى القـوة التـي لا تتحكم فيها البواعـث والأغراض بل تصـدع بالبيان فرقانًا بين الحق والباطل، وميزانًا للخبيث والطيب، أحب الناس أم كرهوا، رضوا أم سخطوا، آمنوا أم كفروا إذ لا تزيدها طاعة الطائعين ولا تنقصها معصية العاصين فترى بين المقامين ما بينهما وشتان ما بين سيد ومسود، وعابد ومعبود.

---

(٨) نقـول: ظاهر النص لأن العطف بأو يحتمل أن يكـون للتسوية لا للتخيير، كما أن صيغـة العدد تحتمل أن تكون للمبالغة لا للتحديد، وكلاهما احتمال قوي إلا أن معنى التخيـير والتحديد آت على أصـل الوضع، وعلى مقتضى كـرم الطبع. فلم يعدل عنه الرسول الكريم إلا بنص آخر.

-٣-

ولقد كان يجيئه الأمر أحيانًا بالقول المجمل أو الأمر المشكل الذي لا يستبين هو ولا أصحابه تأويله حتى ينزل الله عليهم بيانه بعدُ. قل لي بربك: أي عاقل توحي إليه نفسه كلامًا لا يفهم هو معناه، وتأمره أمرًا لا يعقل هو حكمته؟ أليس ذلك من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل، وأنه مأمور لا آمر؟

نزل قوله تعالى:

﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾
(البقرة: ٢٨٤)

فأزعجت الصحابة إزعاجًا شديدًا، وداخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من شيء آخر لأنهم فهموا منها أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلوب وخطراتها – فقالوا: يا رسول الله أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها – فقال لهم النبي ﷺ: «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥) فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات حتى أنزل الله بيانها بقوله:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٨٦)

وهنالك علموا أنهم إنما يحاسبون على ما يطيقون من شأن القلوب وهو ما كان من النيات المكسوبة والعزائم المستقرة، لا

مـن الخواطـر والأماني الجاريـة على النفس بغير اختيـار. الحديث في مسـلم وغيره، وأشار إليه البخاري في التفسير مختصرًا وموضع الشـاهد منـه أن النبي لـو كان يعلم تأويلها مـن أول الأمر لبين لهم خطأهـم ولأزال اشـتباههم من فوره، لأنه لم يكـن ليكتم عنهم هذا العلـم وهم في أشـد الحاجة إليه، ولم يكن ليتركهـم في هذا الهلع الـذي كاد يخلـع قلوبهم وهـو بهم رءوف رحيم ولكنـه كان مثلهم ينتظر تأويلها ولأمر ما أخر الله عنهم هذا البيان ولأمر ما وضع حرف التراخي في قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾

(القيامة: ١٩)

واقـرأ فـي صحيح البخـاري وسـنن أبـي داود وغيرهمـا قضية الحديبيـة، فيهـا آية بينـة: أذن الله للمؤمنين أن يقاتلـوا من يعتدي عليهـم أينمـا وجدوه، غير ألا يقاتلوا في الحـرم من لم يقاتلهم فيه نفسه، فقال تعالى:

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(البقرة: ١٩٠ - ١٩٣)

فلما أجمعوا زيارة البيت الحرام في ذلك العام وهو العام السادس مـن الهجـرة أخذوا أسـلحتهم حـذرًا أن يقاتلهم أحـد فيدافعوا عن أنفسهم الدفاع المشروع.

ولما أشرفوا على حدود الحرم علموا أن قريشًا قد جمعت جموعها على مقربة منهم فلم يثن ذلك من عزمهم ؛ لأنهم كانوا على تمام الأهبة ، بل زادهم ذلك استبسالا وصمموا على المضي إلى البيت فمن صدهم عنه قاتلوه ، وكانت قريش قد نهكتها الحروب فكانت البواعث كلها متضافرة والفرصة سانحة للالتحام في موقعة فاصلة يتمكن فيها الحق من الباطل فيدمغه . وإنهم لسائرون عند الحديبية إذ بركت راحلة النبي ﷺ وأخذ أصحابه يثيرونها إلى جهة الحرم فلا تثور ، فقالوا : خلأت القصواء ، خلأت القصواء ، أي حرنت الناقة فقال النبي ﷺ :

« ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » يعني أن الله الذي اعتقل الفيل ومنع أصحابه من دخول مكة محاربين هو الذي اعتقل هذه الناقة ومنع جيش المسلمين من دخولها الآن عنوة وهكذا أيقن أن الله تعالى لم يأذن لهم في هذا العام بدخول مكة مقاتلين ، لا بادئين ولا مكافئين وزجر الناقة فثارت إلى ناحية أخرى فنزل بأصحابه في أقصى الحديبية ، وعدل بهم عن متابعة السير امتثالا لهذه الإشارة الإلهية التي لا يعلم حكمتها ، وأخذ يسعى لدخول مكة من طريق الصلح مع قريش قائلا : « والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها » ولكن قريشا أبت أن يدخلها في هذا العام لا محاربا ولا مسالما وأملت عليه شروطا قاسية بأن يرجع من عامه ، وأن يرد كل رجل يجيئه من مكة مسلما وألا ترد هي أحدا يجيئها من المدينة تاركا لدينه ، فقبل تلك الشروط التي لم يكن ليمليها مثل قريش في ضعفها على مثل المؤمنين في قوتهم ، وأمر أصحابه بالتحلل من عمرتهم وبالعودة من حيث جاءوا ، فلا تسلْ عما كان

لهـذا الصلح من الوقع السـيِّئ في نفوس المسـلمين حتى إنهم لما جعلوا يحلقون بعضهم لبعض كاد يقتل بعضهم بعضا ذهولا وغما، وكادت تزيغ قلوب فريق من كبار الصحابة فأخذوا يتسـاءلون فيما بينهـم ويراجعونـه هو نفسـه قائلين: لـم نعطي الدنية فـي ديننا؟ وهكذا كاد الجيش يتمرد على أمر قائده ويفلت حبله من يده. أفلم يكن من الطبيعي إذ ذاك لو كان هذا القائد هو الذي وضع هذه الخطة بنفسـه أو اشـترك في وضعها أو وقف على أسـرارها أن يبين لكبار أصحابـه حكمة هـذه التصرفات التي فوق العقـول، حتى يطفئ نار الفتنـة قبـل أن يتطاير شـررها؟ ولكن انظر كيـف كان جوابه حين راجعه عمر: «إني رسـول الله ولسـت أعصيه، وهو ناصري» يقول: إنما أنا عبد مأمور ليس لي من الأمر شيء إلا أن أنفذ أمر مولاي واثقا بنصـره قريبـا أو بعيدا وهكذا سـاروا راجعين وهـم لا يدرون تأويل هـذا الإشـكال حتى نزلت سـورة الفتح فبينت لهـم الحكم الباهرة والبشـارات الصادقة فإذا الذي ظنـوه ضيما وإجحافا في بادئ الرأي كان هو النصر المبين والفتح الأكبر[٩] وأين تدبير البشـر من تدبير القدر،

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

(٩) قـال ابـن إسحاق قال الزهري: فما فتح في الإسلام فتـح قبله كان أعظم من فتح الحديبيـة إنما كان القتال حيث التقـى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن النـاس بعضهم بعضا التقوا وتفاوضوا في الحديث فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئا في تلـك المدة إلا دخل فيـه، وفسر ذلك صاحب الفتح فقال: إن الناس لأجل الأمن الذي وقع بينهم اختلط بعضهـم ببعض من غير نكير، وظهر من كان يخفي إسلامه، وأسمع المسلمون المشركين القرآن، وناظروهم جهرة آمنين، وكانوا قبل ذلك لا يتكلمون عندهم بذلك إلا خفية فذل المشركون من حيث أرادوا العزة، وأُقهروا من حيث أرادوا الغلبة.

﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ٢٤ - ٢٧)

ولقد كان حين ينزل عليه القرآن في أول عهده بالوحي يتلقفه متعجلا فيحرك به لسانه وشفتيه طلبا لحفظه، وخشية ضياعه من صدره ولم يكن ذلك معروفا من عادته في تحضير كلامه، لا قبل دعواه النبوة ولا بعدها ولا كان ذلك من عادة العرب، إنما كانوا يزوّرون كلامهم في أنفسهم فلو كان القرآن منبجسا من معين نفسه لجرى على سنة كلامه وكلامهم ولكان له من الروية والأناة الصامتة ما يكفل له حاجته من إنضاج الرأي وتمحيص الفكرة؛ ولكنه كان يرى نفسه أمام تعليم يفاجئه وقتيا ويلم به سريعا بحيث لا تجدي الروية شيئا في اجتلابه لو طلب، ولا في تداركه واستذكاره لو ضاع منه شيء وكان عليه أن يعيد كل ما يلقى إليه حرفيا فكان لا بد له في أول عهده بتلك الحال الجديدة التي لم يألفها من نفسه أن يكون شديد الحرص على المتابعة الحرفية، حتى ضمن الله له حفظه وبيانه بقوله:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾

(القيامة: ١٦)

وقوله:

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾

(طه: ١١٤)

●●●

هذا طرف من سيرته بإزاء القرآن وكلها شواهد ناطقة بصدقه في أن القرآن لم يصدر عنه بل ورد إليه، وأنه لم يفض عن قلبه بل أفيض عليه.

فإذا أنت صعدت بنظرك إلى سيرته العامة لقيت من جوانبها مجموعة رائعة من الأخلاق العظيمة وحسبك الآن منها أمثلة يسيرة إذا ما تأملتها صورت لك إنسانا الطهر ملء ثيابه، والجد حشو إهابه، يأبى لسانه أن يخوض فيما لا يعلمه، وتأبى عيناه أن تخفيا خلاف ما يعلنه، ويأبى سمعه أن يصغي إلى غلو المادحين له: تواضع هو حلية العظماء وصراحة نادرة في الزعماء، وتثبت قلما تجده عند العلماء فأنى من مثله الختل أو التزوير أو الغرور أو التغرير؟ حاش لله!

- ١ -

جلست جويريات يضربن بالدف في صبيحة عرس الربيّع بنت معوذ الأنصارية وجعلن يذكرن آباءهن من شهداء بدر حتى قالت جارية منهن: وفينا نبي يعلم ما في غد فقال ﷺ: «لا تقولي هكذا، وقولي ما كنت تقولين» (رواه البخاري) ومصداقه في كتاب الله تعالى:

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾

(الأنعام: ٥٠)

﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ﴾
(الأعراف:١٨٨)

-٢-

وكان عبد الله بن أبي السـرح أحد النفر الذين استثناهم النبي من الإيمان يوم الفتح لفرط إيذائهم للمسـلمين وصدهم عن الإسـلام، فلمـا جاء إلـى النبي لم يبايعه إلا بعد أن شـفع له عثمان – رضى الله عنه – ثلاثا، ثم أقبل على أصحابه فقال: «أما كان فيكم رجل رشيد يقـوم إلى هذا حين كففت يدي عن بيعته فيقتله؟» فقالوا: ما ندري ما في نفسـك ألا أومأت إلينا بعينك! فقال ﷺ: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين» (رواه أبوداود والنسائي)

-٣-

وجـيء بصبي من الأنصار يصلَّى عليه فقالت عائشـة – رضي الله عنها– : طوبى لهذا لم يعمل شرًا فقال ﷺ «أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم، وخلـق النار وخلق لها أهلا وخلقها لهم وهم في أصلاب آبائهم»[١٠] (رواه مسلم وأصحاب السنن)

-٤-

ولمـا توفي عثمان بن مظعون – رضي الله عنه – قالت أم العلاء – امرأة من الأنصار: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله فقال ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه؟ فقالت: بأبي أنت

(١٠) قال العلماء إن هذا التوقف كان قبل أن يعلم أن أطفال المسلمين في الجنة.

يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ قال: «أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» قالت: فوالله لا أزكي أحدا بعده أبدا. (رواه البخاري والنسائي) ومصداقه في كتاب الله تعالى:

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ (١١)

(الأحقاف: ٩)

أتراه لو كان حين يتحامى الكذب يتحاماه دهاء وسياسة خشية أن يكشف الغيب قريبا أو بعيدًا عن خلاف ما يقول، ما الذي كان يمنعه أن يتقول ما يشاء في شأن ما بعد الموت وهو لا يخشى من يراجعه فيه، ولا يهاب حكم التاريخ عليه؟ بل منعه الخلق العظيم، وتقدير المسئولية الكبرى أمام حاكم آخر أعلى من التاريخ وأهله

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾

(الأعراف: ٦، ٧)

واعلم أنك مهما أزحت عن نفسك راحة اليقين وأرخيت لها عنان الشك وتركتها تفترض أسوأ الفروض في الواقعة الواحدة والحادثة الفذة من هذه السيرة المكرمة فإنك متى وقفت منها على مجموعة صالحة لا تملك أن تدفع هذا اليقين عن نفسك إلا بعد أن تتهم وجدانك وتشك في سلامة عقلك فنحن قد نرى الناس يدرسون حياة الشعراء في أشعارهم فيأخذون عن الشاعر من كلامه صورة كاملة تتمثل فيها عقائده وعوائده وأخلاقه ومجرى تفكيره وأسلوب معيشته، ولا يمنعهم زخرف الشعر وطلاؤه عن استنباط

---

(١١) قال العلماء وكان هذا قبل أن يوحى إليه صدر سورة الفتح: ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾

خيلتــه، وكشــف رغوته عن صريحــه، ذلك أن للحقيقــة قوة غلّابة تنفذ من حجب الكتمان فتقرأ بين الســطور وتعرف في لحن القول، والإنسان مهما أمعن في تصنعه ومداهنته لا يخلو من فلتات في قوله وفعلــه تنم عن طبعه إذا أحفظ أو أخرج أو احتاج أو ظفر أو خلا بمن يطمئن إليه.

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فمــا ظنــك بهذه الحيــاة النبوية التــي تعطيك فــي كل حلقة من حلقاتها مرآة صافية لنفس صاحبها فتريك باطنه من ظاهره، وتريك الصدق والإخلاص ماثلا في كل قول من أقواله وكل فعل من أفعاله؛ بــل كان الناظر إليه إذا قويت فطنته وحســنت فراســته يرى أخلاقه العاليــة تلوح في محياه ولو لم يتكلــم أو يعمل، ومن هنا كان كثير ممن شــرح الله صدورهم للإســلام لا يسألون رســول الله على ما قال برهانا، فمنهم العشــير الذي عرفه بعظمة ســيرته، ومنهم الغريب الــذي عرفه بســيماه فــي وجهه، قــال عبد الله بن ســلام – رضي الله عنــه– : لما قــدم رســول الله ﷺ المدينــة انجفل النــاس إليه وقيل «قدم رســول الله! قدم رسول الله!» فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبت وجه رسول الله ﷺ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب» رواه الترمذي بسند صحيح.

والآن وقد وفينا لك الوعد بعرض هذه النماذج من السيرة النبوية نعود إلــى تقرير ما قصدناه من هذا العــرض فنقول: إن صاحب هذا الخلــق العظيم وصاحب تلك المواقف المتواضعــة بإزاء القرآن، ما كان ينبغي لأحد أن يمتري في صدقه حينما أعلن عن نفسه أنه ليس هــو واضع ذلك الكتاب، وأن منزلته منه منزلة المتعلم المســتفيد،

بـل كان يجب أن نسـجل من هذا الاعتراف البـريء دليلا آخر على صراحته وتواضعه.

●●●

على أن الأمر أمامنا أوضح من أن يحتاج إلى سماع هذا الاعتراف القولي منه أو يتوقف على دراسة تلك الناحية الخلقية من تاريخه.

أليس يكفي للحكم ببراءة الإنسان من عمل من الأعمال أن يقوم من طبيعته شاهد بعجزه المادي عن إنتاج ذلك العمل؟

فلينظر العاقل: هل كان هذا النبي الأمي – صلوات الله عليه– أهلا بمقتضى وسائله العلمية لأن تجيش نفسه بتلك المعاني القرآنية؟

سـيقول الجهلاء مـن الملحدين: نعم، فقـد كان له من ذكائه الفطري وبصيرته النافذة ما يؤهله لإدراك الحق والباطل من الآراء والحسـن والقبيح من الأخلاق والخير والشر من الأفعال حتى لو أن شـيئا في السـماء تناله الفراسـة أو تلهمه الفطرة أو توحي به الفكـرة لَتَنَاوَلَهُ محمد بفطرته السـليمة، وعقله الكامل وتأملاته الصادقة.

ونحـن قد نؤمن بأكثر مما وصفوا من شـمائله، ولكننا نسـأل: هـل كل ما في القرآن مما يسـتنبطه العقل والتفكيـر، ومما يدركه الوجدان والشعور؟

اللهم لا، ففي القرآن جانب كبير من المعاني النقلية البحتة التي لا مجـال فيها للذكاء والاسـتنباط ولا سـبيل إلـى علمها لمن غاب عنهـا إلا بالدراسـة والتلقـي والتعلم، ماذا يقولون فيمـا قصه علينا القـرآن من أنباء ما قد سـبق، وما فصله من تلـك الأنباء على وجهه الصحيـح كما وقع؟ أيقولـون إن التاريخ يمكن وضعه أيضا بإعمال الفكر ودقة الفراسة؟ أم يخرجون إلى المكابرة العظمى فيقولون إن

محمـدا قد عاصر تلـك الأمم الخالية، وتنقل فيها قرنا فشـهد هذه الوقائع مع أهلها شهادة عيان أو أنه ورث كتب الأولين وعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين في علم دقائقها؟ إنهم لا يسعهم أن يقولـوا هـذا ولا ذاك؛ لأنهم معترفون مع العالـم كله بأنه - عليه السلام- لم يكن من أولئك ولا من هؤلاء،

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾

(آل عمران: ٤٤)

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٢)

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى﴾ (القصص: ٤٤)

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٨)

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ (هود: ٤٩)

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ (يوسف: ٣)

لا نقول إن العلم بأسـماء بعض الأنبياء والأمم الماضية وبمجمل ما جرى من حوادث التدمير في ديار عاد وثمود وطوفان نوح وأشباه ذلـك لم يصل قط إلى الأميين: فإن هذه النتف اليسـيرة قلما تعزب عن أحد من أهل البدو أو الحضر لأنها مما توارثته الأجيال وسـارت

به الأمثال، وإنما الشأن في تلك التفاصيل الدقيقة والكنوز المدفونة في بطون الكتب فذلك هو العلم النفيس الذي لم تنله يد الأميين ولم يكن يعرفه إلا القليل من الدارسين، وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محررًا في القرآن حتى الأرقام طبق الأرقام: فترى مثلا في قصة نوح - عليه السلام- في القرآن أنه لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وفي سفر التكوين من التوراة أنه عاش تسع مئة وخمسين سنة، وترى في قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب أنهم لبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنة شمسية وفي القرآن أنهم لبثوا في كهفهم

﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعًا﴾

(الكهف: ٢٥)

وهذه السنون التسع هي فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية، قاله الزجاج - يعني- بتكميل الكسر فانظر إلى هذا الحساب الدقيق في أمة أمية لا تكتب ولا تحسب.

كفاك بالعلم في الأمي معجزة   في الجاهلية والتأديب في اليتم

نعم إنها لعجيبة حقا: رجل أمي بين أظهر قوم أميين يحضر مشاهدهم - في غير الباطل والفجور- ويعيش معيشتهم مشغولا برزق نفسه وزوجه وأولاده راعيا بالأجر أو تاجرا بالأجر لا صلة له بالعلم والعلماء: يقضي في هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره ثم يطلع علينا فيما بين عشية وضحاها فيكلمنا بما لا عهد له به في سالف حياته، وبما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه قبل ذلك ويبدي لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم في دفاترهم وقماطرهم، أفي مثل هذا يقول الجاهلون إنه استوحى عقله واستلهم ضميره؟ أي منطق يسوغ أن يكون هذا الطور الجديد

العلمـي نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية الأمية؟ إنه لا مناص في قضيـة العقـل من أن يكون لهـذا الانتقال الطفري سـر آخر يلتمس خارجـا عـن حدود النفـس وعن دائـرة المعلومـات القديمـة، وأن ملاحـدة الجاهلية وهم أجلاف الأعراب في البادية كانوا في الجملة أصدق تعليلا لهذه الظاهرة وأقرب فهما لهذا السـر من ملاحدة هذا العصر، إذ لم يقولوا كما قال هؤلاء إنه استقى هذه الأخبار من وحي نفسـه، بل قالوا إنه لا بد أن تكون قـد أمليت عليه منذ يومئذ علوم جديدة، فدرس منها ما لم يكن قد درس، وتعلم ما لم يكن يعلم

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ ﴾

(الأنعام: ١٠٥)

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

(الفرقان: ٥)

ولقـد صدقـوا، فإنه درسـها، ولكن على أسـتاذه الـروح الأمين واكتتبها، ولكن من صحف مكرمة مرفوعة مطهرة، بأيدي سـفرة، كرام بررة،

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾؟

(يونس: ١٦)

ذلـك شـأن ما في القـرآن من الأنبـاء التاريخية، لا جـدال في أن سبيلها النقل لا العقل، وأنها تجيء من خارج النفس لا من داخلها.

فأما سائر العلوم القرآنية فقد يقال إنها من نوع ما يدرك بالعقل، فيمكـن أن ينالها الذكي بالفراسـة أو بالرويـة، وهذا كلام قد يلوح حقا في بادئ الرأي، ولكنه لا يلبث أن ينهار أمام الاختبار.

ذلك أن العقول البشرية لها في إدراك الأشياء طريق معين تسلكه، وحد محدود تقف عنده ولا تتجاوزه فكل شيء لم يقع تحت الحس الظاهر أو الباطن مباشرة، ولم يكن مركوزا في غريزة النفس، إنما يكون إدراك العقول إياه عن طريق مقدمات معلومة توصل إلى ذلك المجهول، إما بسرعة كما في الحدس وإما ببطء كما في الاستدلال والاستنباط والمقايسة، وكل ما لم تمهد له هذه الوسائل والمقدمات لا يمكن أن تناله يد العقل بحال وإنما سبيله الإلهام، أو النقل عمن جاءه ذلك الإلهام.

فهل ما في القرآن من المعاني غير التاريخية كانت حاضرة الوسائل والمقدمات في نظر العقل؟

ذلك ما سيأتيك نبؤه بعد حين، ولكننا نعجل لك الآن بمثالين من تلك المعاني نكتفي بذكرهما هنا عن إعادتهما بعد: (أحدهما) قسم العقائد الدينية، (والثاني) قسم النبوءات الغيبية.

فأما أمر الدين فإن غاية ما يجتنيه العقل من ثمرات بحثه المستقل فيه، بعد معاونة الفطرة السليمة له، هو أن يعلم أن فوق هذا العالم إلهًا قاهرًا دبره وأنه لم يخلقه باطلًا، بل وضعه على مقتضى الحكمة والعدالة. فلا بد أن يعيده كرة أخرى لينال كل عامل جزاء عمله إن خيرًا وإن شرًا، هذا هو كل ما يناله العقل الكامل من أمر الدين ولكن القرآن لا يقف في جانبه عند هذه المرحلة، بل نراه يشرح لنا حدود الإيمان مفصلة، ويصف لنا بدء الخلق ونهايته، ويصف الجنة وأنواع نعيمها، والنار وألوان عذابها، كأنهما رأي عين، حتى إنه ليحصي عدة الأبواب، وعدة الملائكة الموكلة بتلك الأبواب فعلى أي نظرية عقلية بنيت هذه المعلومات الحسابية، وتلك الأوصاف التحديدية؟ إن ذلك ما لا يوحي به العقل البتة، بل هو إما باطل

فيكون من وحي الخيــال والتخمين، وإما حق، فلا ينال إلا بالتعليم والتلقين؛ لكنه الحق الذي شهدت به الكتب واستيقنه أهلها

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ﴾

(المدثر: ٣١)

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾

(الشورى: ٥٢)

﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

(ص: ٦٩)

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

(يونس: ٣٧)

وأمــا النبــوءات الغيبية فهــل تعرف كيف يحكم فيهــا ذو العقل الكامل؟ إنه يتخذ من تجاربه الماضية مصباحًا يكشــف على ضوئه بضع خطوات من مجرى الحوادث المقبلة، جاعلًا الشــاهد من هذه مقياسًــا للغائب مــن تلك ثم يصدر فيها حكمــه محاطًا بكل تحفظ وحــذر، قائلًا: «ذلك ما تقضي به طبيعة الحوادث لو ســارت الأمور على طبيعتها ولم يقع ما ليس في الحسبان». أما أن يبت الحكم بتًا ويحدده تحديدًا حتى فيما لا تدل عليه مقدمة من المقدمات العلمية، ولا تلوح منه أمارة من الأمارات الظنية العادية، فذلك ما لا يفعله إلا أحــد رجلين: إما رجل مجازف لا يبالــي أن يقول الناس فيه صدق أو كــذب، وذلك هو دأب جهلاء المتنبئين مــن العرافين والمنجمين، وإما رجل اتخذ عند الله عهدًا فلن يخلف الله عهده، وتلك هي ســنة

الأنبياء والمرسلين، ولا ثالث لهما إلا رجلًا روى أخباره عن واحد منهما فأي الرجلين تراه في صاحب هذا القرآن حينما يجيء على لسانه الخبر الجازم بما سيقع بعد عام وما سيقع في أعوام، وما سيكون أبد الدهر، وما لن يكون أبد الدهر؟ ذلك وهو لم يتعاط علم المعرفة والتنجيم ولا كانت أخلاقه كأخلاقهم تمثل الدعوى والتقحم، ولا كانت أخباره كأخبارهم خليطًا من الصدق والكذب، والصواب والخطأ بل كان مع براءته من علم الغيب وقعوده عن طلبه وتكلفه، يجيئه عفوًا ما تعجز صروف الدهر وتقلباته في الأحقاب المتطاولة أن تنقض حرفًا واحدًا مما ينبئ به

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

(فصلت: ٤١، ٤٢)

ولنسرد لك هاهنا بعض النبوءات القرآنية مع بيان شيء من ملابساتها التاريخية، لترى هل كانت مقدماتها القريبة أو البعيدة حاضرة فتكون تلك النبوءات من جنس ما توحي به الفراسة والألمعية؟ وسنحصر الكلام في ثلاثة أنواع:

١ ـ ما يتعلق بمستقبل الإسلام في نفسه أو في شخص كتابه ونبيه.

٢ و٣ ـ ما يتعلق بمستقبل الحزبين: حزب الله وحزب الشيطان.

(مثال النوع الأول) ما جاء في بيان أن هذا الدين قد كتب الله له البقاء والخلود، وأن هذا القرآن قد ضمن الله حفظه وصيانته

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾

(الرعد: ١٧)

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾

(إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥)

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

(الحجر : ٩)

أتعلم متى وأين صدرت هذه البشارات المؤكدة، بل العهود الوثيقة؟

إنها آيات مكية من سور مكية وأنت قد تعرف ما أمر الدعوة المحمدية في مكة؟... عشر سنوات كلها إعراض من قومه عن الاستماع لقرآنه، وصد لغيرهم عن الإصغاء له، واضطهاد وتعذيب لتلك الفئة القليلة التي آمنت به، ثم مقاطعة له ولعشيرته ومحاصرتهم مدة غير يسيرة في شعب من شعاب مكة، ثم مؤامرات سرية أو علنية على قتله أو نفيه، فهل للمرء أن يلمح في ثنايا هذا الليل الحالك الذي طوله عشرة أعوام، شعاعًا ولو ضئيلًا من الرجاء أن يتنفس صبحه عن الإذن لهؤلاء المظلومين برفع صوتهم وإعلان دعوتهم؟ ولو شام المصلح تلك البارقة من الأمل في جوانب نفسه من طبيعة دعوته، لا في أفق الحوادث، فهل يتفق له في مثل هذه الظروف أن يربو في نفسه الأمل حتى يصير حكمًا قاطعًا؟ وهبه امتلأ رجاء بظهور دعوته في حياته ما دام يتعهدها بنفسه، فمن يتكفل له بعد موته ببقاء هذه الدعوة وحمايتها وسط أمواج المستقبل العاتية؟ وكيف يجيئه اليقين في ذلك وهو يعلم من عبر الزمان ما يفت في عضد هذا اليقين؟ فكم من مصلح صرخ بصيحات الإصلاح فما لبثت أصواته أن ذهبت أدراج الرياح، وكم

مــن مدينــة قامت في التاريخ ثم عفت ودرســت آثارها ، وكم من نبي قتل وكم من كتاب فقد أو انتقص أو بدل .

وهل كان محمد ﷺ ممن تســتخفه الآمــال فيجري مع الخيال ؟ إنه ما كان قبل نبوته يطمع في أن يكون نبيًا يوحى إليه

﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾

(القصص : ٨٦)

ولا كان بعــد نبوته يضمن لنفســه أن يبقى هــذا الوحي محفوظًا لديه

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾

(الإسراء : ٨٦ ، ٨٧)

فلا بد إذن من كفيل بهذا الحفظ من خارج نفســه ، ومن ذا الذي يملــك هــذا الضمان علــى الدهر المتقلــب المملــوء بالمفاجآت ؟ إلا رب الدهــر الــذي بيده زمــام الحوادث كلها ، والــذي قدر مبدأها ومنتهاها ، وأحاط علمًا بمجراها ومرســاها ، فلولا فضل الله ورحمته الموعــود بهمــا في الآيــة الآنفة لما اســتطاع القــرآن أن يقاوم تلك الحروب العنيفة التي أقيمت ولا تزال تقام عليه بين آن وآن .

ســل التاريخ : كم مرة تنكر الدهر لدول الإســلام وتسلط الفجار علــى المســلمين فأثخنوا فيهــم القتــل ، وأكرهوا أممًــا منهم على الكفر ، وأحرقوا الكتب ، وهدموا المســاجد ، وصنعوا ما كان يكفي القليــل منه لضياع هذا القــرآن كلا أو بعضًا كما فعل بالكتب قبله ، لولا أن يد العناية تحرســه فبقي في وســط هــذه المعامع رافعًا راياته وأعلامه حافظًا آياته وأحكامه . بل اسأل صحف الأخبار اليومية : كم مــن القناطير المقنطرة من الذهب والفضــة تنفق في كل عام لمحو

هـذا القرآن وصـد الناس عن الإسـلام بالتضليل والبهتـان والخداع والإغراء ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ ﴾

(الأنفال: ٣٦)

ذلـك بأن الذي يمسـكه أن يزول هو الذي يمسـك السـماوات والأرض أن تزولا.

ذلك بأن الله:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

(التوبة: ٣٣)

والله بالـغ أمره، ومتم نوره، فظهر وسـيبقى ظاهـرًا لا يضره من خالفه حتى يأتي أمر الله.

(ومثال آخر) ما جاء في التحدي بهذا القرآن وتعجيز العالم كله عن الإتيان بمثله:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨)

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ ﴾ (البقرة: ٢٤)

فانظـر هـذا النفي المؤكـد، بل الحكـم المؤبد! هل يسـتطيع عربـي يـدري ما يقـول أن يصدر هـذا الحكـم وهو يعلـم أن مجال المسـاجلات بين العرب مفتوح على مصراعيه، وأن الناقد المتأخر متـى أعمـل الروية في تعقب قـول القائل المتقـدم لا يعييه أن يجد فيـه فائتًا ليسـتدرك، أو ناقصًا ليكمل، أو كامـلا ليزداد كمالًا؟ ألم يكن يخشـى بهذا التحدي أن يثير حميتهم الأدبية فيهبوا لمنافسته

وهم جميع حذرون؟ وماذا عساه يصنع لو أن جماعة من بلغائهم تعاقدوا على أن يضع أحدهم صيغة المعارضة، ثم يتناولها سائرهم بالإصلاح والتهذيب كما كانوا يصنعون في نقد الشعر، فيكمل ثانيهم ما نقصه أولهم، وهكذا، حتى يخرجوا كلامًا إن لم يبزه فلا أقل من أن يساميه ولو في بعض نواحيه؟ ثم لو طوعت له نفسه أن يصدر هذا الحكم على أهل عصره فكيف يصدره على الأجيال القادمة إلى يوم القيامة، بل على الإنس والجن؟ إن هذه مغامرة لا يتقدم إليها رجل يعرف قدر نفسه إلا وهو مالئ يديه من تصاريف القضاء، وخبر السماء وهكذا رماها بين أظهر العالم، فكانت هي القضاء المبرم سلط على العقول والأفواه، فلم يهم بمعارضته إلا باء بالعجز الواضح والفشل الفاضح على مر العصور والدهور.

(ومثال ثالث) تلك الآية التي يضمن الله بها لنبيه حماية شخصه والأمن على حياته حتى يبلغ رسالات ربه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾

(المائدة: ٦٧)

إن هذا وايم الله ضمان لا يملكه بشر، ولو كان ملكا محجبا تسير الحفظة من بين يديه ومن خلفه، فكم رأينا ورأى الناس مِن الملوك والعظماء مَن اختطفتهم يد الغيلة وهم في مواكبهم تحيط بهم الجنود والأعوان ولكن انظر مبلغ ثقة الرسول بهذا الوعد الحق: روى الترمذي والحاكم عن عائشة، وروى الطبراني عن أبي سعيد الخدري قال: كان النبي يُحرَس بالليل فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال: «يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله» وحقًا لقد عصمه الله منهم في مواطن كثيرة كان خطر الموت فيها أقرب

إليه من شراك نعله، ولم يكن له فيها عاصم إلا الله وحده.

من ذلك ما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة، ورواه مسلم في صحيحه عن جابر قال: كنا إذا أتينا في سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فلما كنا بذات الرقاع نزل نبي الله تحت شجرة وعلق سيفه فيها فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاخترطه وقال للنبي ﷺ: أتخافني؟ قال: لا، قال: فمن يمنعك مني؟ قال: «الله يمنعني منك، ضع السيف» فوضعه. وحسبك أن تعلم أن هذا الأمن كان في الغزوة التي شرعت فيها صلاة الخوف.

ومن أعظم الوقائع تصديقًا لهذا النبأ الحق ذلك الموقف المدهش الذي وقفه النبي في غزوة حنين، منفردًا بين الأعداء، وقد انكشف المسلمون وولوا مدبرين، فطفق هو يُركِض بغلتَه إلى جهة العدو، والعباس بن عبد المطلب آخذ بلجامها يكفها إرادة ألا تسرع فأقبل المشركون إلى رسول الله ﷺ، فلما غشوه لم يفر ولم ينكص بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه، وجعل يقول: «أنا النبي لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب» كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه فوالله ما نالوا منه نيلًا، بل أيده الله بجنده، وكف عنه أيديهم بيده، الحديث رواه الشيخان عن البراء بن عازب، ورواه مسلم عن العباس وسلمة بن الأكوع، ورواه أحمد وأصحاب السنن عن غيرهم هم أيضًا.

وهكذا أمتع الله به أمته فلم يقبضه إليه حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة، وحتى أنزل عليه قوله:

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾

(المائدة: ٣)

(وإليك مثالًا من النوع الثاني)

كان القرآن في مكة يقص على المسلمين من أنباء الرسل ما يثبت فؤادهم، ويعدهم الأمن والنصر الذي كان لمن قبلهم

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

(الصافات: ١٧١- ١٧٣)

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾

(غافر: ٥١)

فلما هاجروا إلى المدينة فرارًا بدينهم من الفتن ظنوا أنهم قد وجدوا مأمنهم في مهاجرهم. ولكنهم ما لبثوا أن هاجمتهم الحروب المسلحة من كل جانب، فانتقلوا من خوف إلى خوف أشد وأصبحت كل أمنيتهم أن يجيء يوم يضعون فيه أسلحتهم، وفي هذه الأوقات العصبية ينبئهم القرآن بما سيكون لهم من الخلافة والملك، علاوة على الأمن والاطمئنان، فما هذا؟ أأحلام وأماني؟ لا، بل وعد مؤكد بالقسم:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾

(النور: ٥٥)

روى الحاكم وصححه عن أبي بن كعب قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا أترون أنا نعيش حيث نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله؟ فنزلت الآية

وروى ابن أبي حاتم عن البراء قال : نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد .

فانظر كيف جاء تأويلها على أوسع معانيها في عصر الصحابة أنفسهم الذين وقع لهم خطاب المشافهة في قوله (منكم) فبدلوا من بعد خوفهم أمنًا لا خوف فيه : واستخلفوا في أقطار الأرض فورثوا مشارقها ومغاربها .

وتأمل قوله في هذه الآية :

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾

وقوله في الآية الأخرى :

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ﴾

(الحج : ٤٠ ، ٤١)

تجد فيها نبأ آخر عن سر ما يبتلى به المؤمنون أحيانًا من انتقاص أرضهم وتسلط أعدائهم عليهم

﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾

(آل عمران : ١٦٥)

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الأنفال : ٥٣)

(ومثالا آخر):

مُنع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية واشترطت عليهم قريش إذا جاءوها في العام المقبل أن يدخلوها عُزَّلًا من كل سلاح

إلا السيوف في القُرُب ، فهل كان لهم أن يثقوا بوفاء المشركين بعقدهم وقد بَلُوا منهم نكث العهود وقطع الأرحام وانتهاك شعائر الله ؟ أليسوا اليوم يحبسون هديهم أن يبلغ محله ؟ فماذا هم صانعون غدًا ؟ على أنهم لو صدقوا في تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمون جانبهم إذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعهم وقوتهم ، ألا تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم إلى الفخ ؟ وآية ذلك اشتراط تجردهم من السلاح إلا السيف في القراب ، وهو سلاح قد يطمئن به المسلمون إلى أنهم لن ينالوهم بأيديهم ورماحهم ، ولكنهم لا يأمنون معه أن ينالوهم بسهامهم ونبالهم – في هذه الظروف المريبة يجيئهم الوعد الجازم بالأمور الثلاثة مجتمعة الدخول ، والأمن ، وقضاء الشعيرة :

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ﴾

(الفتح : ٢٧)

فدخلوها في عمرة القضاء آمنين ، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم وقضوا مناسكهم . . الحديث أخرجه الشيخان .

(ومثالًا ثالثًا) : كان المشركون يجادلون المسلمين في مكة قبل الهجرة ، يقولون لهم إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب ، وقد غلبتهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذي أنزل عليكم ، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم فنزلت الآية :

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ﴾

(الروم : ١ – ٤)

لقد كان الإخبار بهذا النصر وبأنه كائن في وقت معين إخبارًا

بأمريــن كل منهمــا خارج عــن متنــاول الظنون ذلــك أن دولة الروم كانــت قد بلغت من الضعــف حدا يكفي من دلائلــه أنها غزيت في عقر دارها وهزمت في بلادها كما قال تعالى:

﴿ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ ﴾

فلــم يكــن أحد يظن أنهــا تقوم لها بعــد ذلك قائمــة، فضلًا عن أن يحــدد الوقــت الذي ســيكون لهــا فيــه النصر ولذلــك كذب به المشــركون، وتراهنوا على تكذيبه على أن القرآن لم يكتف بهذين الوعدين، بل عززهما بثالث، حيث يقول

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾

(الروم: ٤، ٥)

إشارة إلى أن اليوم الذي يكون فيه النصر هناك للروم على الفرس سيقع فيه هاهنا نصر للمسلمين على المشركين وإذا كان كل واحد من النصرين في حد ذاته مســتبعدًا عند الناس أشد الاستبعاد فكيف الظن بوقوعهما مقترنين في يوم؟ لذلك أكده أعظم التأكيد بقوله:

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

(الروم: ٦)

ولقد صــدق الله وعده فتمــت للروم الغلبة علــى الفرس بإجماع المؤرخيــن في أقل من تســع ســنين[١٢] وكان يوم نصرهــا هو اليوم

---

(١٢) رب قائل يقول: هلا حدد القرآن عدد السنين بلفظ أصرح من لفظ البضع المتراوح بــين الثلاث والتســع أليس الله بأعلم بيــوم النصر وساعته بلـه سنتــه؟ فنقول: بلى ولكــن النـاس في اصطلاحهم الحسابي لا يجرون علـى طريقة واحدة، فمنهم من يحسب بالشمس ومنهم من يحسب بالقمــر، ومنهم من يكمل الكسور، ومنهم من يلغيها فكان مقتضــى الحكمة التعبير باللفظ الصادق على كل تقدير؛ ليكون أقطع لكل شبهة وأبعد عــن كل جدل ومكابرة، ثم إنه ربما تراخى الأمر بين بشائــر النصر ووقائعه الفاصلة فيقــع اختلاف الحاسبين في تعيين الوقت الذي يضاف إليه النصر والغلبة؛ ولذا حسن التعبير بلفظ (في بضع) دون أن يقال بعد بضع.

الـذي وقع فيـه النصر للمسـلمين على المشـركين في غـزوة بدر الكبـرى، كمـا رواه الترمذي عن أبي سـعيد، ورواه الطبري عن ابن عباس وغيره.

وهذه أمثلة من النوع الثالث:

اسـتعصى أهل مكة على النبي ﷺ فدعا عليهم بسـنين كسـني يوسف، فانظر ما قاله القرآن في جواب هذا الدعاء

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(الدخان: ١٠، ١١)

فمـاذا جـرى؟ أصابهـم القحط حتـى أكلوا العظـام وحتى جعل الرجـل ينظـر إلى السـماء فيرى ما بينـه وبينها كهيئـة الدخان من الجهد، رواه البخاري عن ابن مسعود، ثم انظر قوله بعد ذلك

﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾

(الدخان: ١٥، ١٦)

تـر فيها ثلاث نبوءات أخرى: كشـف البؤس عنهم، ثم عودتهم إلى مكرهم السـيئ، ثم الانتقام منهم بعد ذلك، وقد كان ذلك كله كما بينه الحديث الصحيح المذكور فإنهم لما جاءوا إلى رسول الله يستسقون وتضرعوا إلى الله:

﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾

(الدخان: ١٢)

سـقاهم الله فأخصبـوا ولكنهـم سـرعان ما عـادوا إلـى عتوهم واستكبارهم فبطش الله بهم البطشة الكبرى يوم بدر، حيث قتل من

صناديدهم سبعون وأسر سبعون.

وقد تكرر في القرآن المكي إنباؤهم بهذا الانتقام على صور شتى:

فتارة يأتي مجملاً كما في قوله:

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾

(الرعد: ٣١)

وقوله:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾

(الصافات: ١٧٤، ١٧٥)

وتارة يعين نوع العذاب بأنه الهزيمة الحربية كما في قوله:

﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾

(القمر: ٤٥)[١٣]

وهذا كما ترى من عجيب الأنباء في مكة حيث لا مجال لأصل فكرة الحرب والتقاء الجموع فضلاً عن توقع فرارها وهزيمتها، حتى إن عمر – رضي الله عنه– لما نزلت هذه الآية جعل يقول: أي جمع هذا؟ قال فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يقولها. رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه وعَجُزه في الصحيحين.

وتارة ينص على حوادث جزئية محددة منه – وهذا أعجب

---

(١٣) ونحوها ما ورد في سورة المزمل وهي من أوائل ما نزل في مكة ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (المزمل: ٢٠)

وأغرب- كما في قوله في شأن الرجل الزنيم[١٤] الذي كان يقول في القرآن إنه أساطير الأولين

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾

(القلم: ١٦)

فأصيب بالسيف في أنفه يوم بدر وكان ذلك علامة له يعير بها ما عاش. رواه الطبري وغيره عن ابن عباس، ونظير هذه الأنباء في كفار قريش ما ورد في كفار اليهود انظر كيف يقول فيهم:

﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمۡ يُوَلُّوكُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ (آل عمران: ١١١)

وقد فعل ثم يقول:

﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾

(آل عمران: ١١٢)

ويقول:

﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾

(الأعراف: ١٦٧)

فيا عجبًا لهذه الآيات! هل كانت مؤلفة من حروف وكلمات؟ أم كانت أغلالًا وضعت في أعناقهم إلى الأبد وأصفادًا شدت بها أيديهم فلا فكاك؟ ألا تراهم منذ صدرت عليهم هذه الأحكام أشتاتًا في كل واد أذلاء في كل ناد، لم تقم لهم في عصر من العصور دولة ولم

(١٤) المشهور أنه هو الوليد بن المغيرة المخزومي الذي نزل فيه ﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا﴾ (المدثر: ١١)

تجمعهم قط بلدة، وهم اليوم على الرغم من تضخم ثروتهم المالية إلى ما يقرب من نصف الثروة العالمية، لا يزالون مشـردين ممزقين عاجزين عن أن يقيموا لأنفسهم دويلة كأصغر الدويلات، بل تراهم فـي بلاد الغرب المسـيحية يسـامون أنـواع الخسـف والنكال، ثم تكون عاقبتهم الجلاء عنها مطرودين وبلاد الإسـلام التي هي أرحب أرض الله صدرًا – إنما تقبلهم رعية محكومين لا سادة حاكمين.

وهل أتاك آخر أنبائهم؟

لقـد زينت الآن لهم أحلامهم أن يتخذوا من (الأرض المقدسـة) وطنًـا قوميًا تأوي إليـه جالياتهم من أقطار الأرض حتـى إذا ما تألف منهم هنالك شـعب ملتئم الشمل، وطال عليهم الأمد فلم يزعجهم أحد سـعوا إلى رفع هذا العار التاريخي عنهم، بإعادة ملكهم القديم في تلك البلاد وعلى برق هذا الأمل أخذ أفواجٍ منهم يهاجرون إليها زرافـات ووحدانًا وينزلون بهـا خفافًا أو ثقالاً.. فهل اسـتطاعوا أن يتقدموا هذه الخطوة الأولى – أو لعلها الأولى والأخيرة – مستندين إلـى قوتهم الذاتية؟ كلا ولكن مسـتندين إلى (حبـل من الناس!!) فماذا تقول؟ قل: صدق الله ومن أصدق من الله حديثًا.

أما ظنهم الذي يظنون وهو أنهم بمزاحمتهم للسكان في أرضهم وديارهـم يمهـدون لما يحلمون بـه من مزاحمتهم بعـد في ملكهم وسـلطانهم، فذلـك ما دونه خـرط القتاد، يريـدون أن يبدلوا كلام الله ولا مبـدل لكلماتـه، ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا﴾ (النساء: ٥٣)

والله من ورائهم محيط.

فانظـر إلى عجيب شـأن النبوءات القرآنية كيـف تقتحم حجب المسـتقبل قريبًا وبعيدًا وتتحكم في طبيعة الحوادث توقيتًا وتأييدًا

وكيف يكون الدهر مصداقًا لها فيما قل وكثر وفيما قرب وبعد؟

بل انظر إلى جملة ما في القرآن من النواحي الإخبارية كيف يتناول بها محمد ﷺ ما وراء حسه وعقله من أنباء، ما كان وما سيكون وما هو كائن وكيف أنه كلما حدثنا فيها عن الماضي صدقته شواهد التاريخ، وكلما حدثنا عن المستقبل صدقته الليالي والأيام، وكلما حدثنا عن الله وملائكته وشئون غيبه صدقته الأنبياء والكتب.

ثم اسأل نفسك بعد ذلك «أترينَّ هذا الرجل الأمي جاء بهذا الحديث كله من عند نفسه؟».

تسمع منها جواب البديهة الذي لا تردد فيه: «إنه لا بد أن يكون قد استقى هذه الأنباء من مصدر علمي وثيق، واعتمد فيها على اطلاع واسع ودرس دقيق، ولا يمكن أن تكون تلك الأنباء كلها وليدة عقله وثمرة ذكائه وعبقريته» وإلا فأين هذا الذكي أو العبقري الذي أعطاه الدهر عهدًا بأن يكون عاصمًا لظنونه كلها من الخطأ في كشف وقائع الماضي مهما قدم وأنباء المستقبل مهما بعد؟

إن الأنبياء أنفسهم - وهم في الطبقة العليا من الذكاء والفطنة بشهادة الكافة- لم يظفروا من الدهر بهذا العهد في أقرب الحوادث إليهم، فقد كانوا فيما عدا تبليغ الوحي إذا اجتهدوا رأيهم فيما غاب عن مجلسهم أصابت فراستهم حينًا وأخطأت حينًا؛ هذا يعقوب - عليه السلام- نراه يتهم بنيه حين جاءوا على قميصه بدم كذب ثم يعود فيتهمهم حين قالوا له إن ابنك سرق فيقول لهم في كل مرة

﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾

(يوسف: ١٨، ٨٣)

وقد أصاب في الأولى، ولكنه في الثانية اتهمهم وهم برآء، وهذا موسى - عليه السلام- نراه يقول للعبد الصالح

﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرًا ﴾

(الكهف: ٦٩)

ثم ينسى فلا يطيق معه صبرًا ولا يطيع له أمرًا.

وهـذا محمـد ﷺ كان ربما همَّ النـاس أن يضللوه فـي الأحكام فيدافع عن المجرم ظنًا أنه بريء حتى ينبئه العليم الخبير.

فإن كنت في شك من ذلك فاقرأ قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمًا ١٠٥ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

(النساء: ١٠٥، ١٠٦)

وقد صح في سبب نزولها أن لصًا عدا ذات ليلة على مشربة لرجل من الأنصار يقال له رفاعة، فنقب مشـربته وسـرق ما فيها من طعام وسلاح فلما أصبح الأنصاري افتقد متاعه حتى أيقن أنه في بيت بني أبيـرق وكان فيهم منافقـون، فبعث ابن أخيه إلى النبي يشـكو إليه فقال ﷺ: «سـأنظر في ذلك» فلما سمع بذلك بنو أبيرق جاءوا إلى النبي فقالوا: يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه رفاعة عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسـلام وصلاح يرمونهم بالسـرقة من غير بينة ولا ثَبَـتٍ فجـاء قتادة فقال له ﷺ: يا قتادة «عمـدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسـلام وصلاح ترميهم بالسـرقة على غير ثَبَتٍ وبينة!» فرجع قتادة إلى عمه فأخبره فقال عمه: الله المستعان ثم لم تلبث أن نزلت الآية تبين للنبي خيانة بني أبيرق وتأمره بالاستغفار مما قال لقتادة.

الحديث رواه الترمذي وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم.

بل اسمع قوله ﷺ عن نفسه فيما يرويه أحمد وابن ماجه: «إنما أنا بشـر مثلكم وإن الظن يخطئ ويصيب ولكن ما قلت لكم «قال الله» فلن أكـذب على الله» وقوله: «إنما أنا بشـر وإنكـم تختصمون إليّ

فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحسب أنه صادق ؛ فأقضي له على نحو ما أسمعه ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها » رواه مالك والشيخان وأصحاب السنن .

فمن كان هكذا عاجزًا بنفسه عن إدراك حقيقة ما وقع بين خصمين في زمنه وفي بلده وقد رأى أشخاصهما وسمع أقوالهما هو بلا شك أشد عجزًا عن إدراك ما فات وما هو آت .

تلك هي شقة الغيب تنطفئ عندها مصابيح الفراسة والذكاء ، فلا يدنو العقل منها إلا وهو حاطب ليل وخابط عشواء : إن أصاب الحق مرة أخطأه مرات ، وإن أصابه مرات أخطأه عشرات ، على أن الذي يصادفه من الصواب لا يمكن الوثوق ببقائه معصومًا من التغيير والتبديل ، بل عسى أن تذهب به ريح المصادفة كما جاءت به ريح المصادفة :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾

(النساء : ٨٢)

لا مناص إذن للباحث عن مصدر القرآن من توسيع دائرة بحثه ، فإذ لم يظفر بمطلبه عند صاحب القرآن في ناحية عقله وفراسته وجب أن يلتسمه – وأن يظفر به حتمًا – في ناحية تعليمه ودراسته ؛ لأن المتكلم بكلام ما لا يعدو أن يكون قائلًا له أو ناقلًا ولا ثالث لهما .

نعم ، إن صاحب هذا القرآن لم يكن ممن يَرجع بنفسه إلى كتب العلم ودواوينه ؛ لأنه باعتراف الخصوم كما ولد أميًا نشأ أميًا وعاش أميًا ، فما كان يومًا من الأيام يتلو كتابًا في قرطاس ولا يخطه بيمينه ، فلا بد له من معلم يكون قد وقفه على هذه المعاني لا بطريق الكتابة والتدوين ، بل بطريق الإملاء والتلقين ، هذا هو حكم المنطق .

ستقول: فمن هو ذلك المعلم؟

نقول: هذا هو الشطر الثاني من مسألة القرآن.

وأنت إذا تأملتَ فيما سقناه لك من البراهين على الشطر الأول وجدت بجانب كل منها برهانًا آخر على هذا الشطر الثاني وعرفت من هو ذلك المعلم؟ غير أننا نحب أن نزيدك به معرفة حتى تقول معنا فيه: ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم مبلغٌ عن رب العالمين.

***

أما إن محمدًا ﷺ لم يكن له معلم من قومه الأميين فذلك ما لا شبهة فيه لأحد، ولا نحسب أحدًا في حاجة إلى الاستدلال عليه بأكثر من اسم (الأمية) الذي يشهد عليهم بأنهم كانوا خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون من أمر الدين شيئًا وكذلك اسم (الجاهلية) الذي كان أخص الألقاب بعصر العرب قبل الإسلام، فهؤلاء الذين فقدوا أساس هذا العلم في أنفسهم حتى اشتق لهم من الجهل اسم كيف يحملون وسام التعليم فيه لغيرهم؟ بله التعليم لمعلمهم الذي وسمهم بالجهل غير مرة في كتابه وسرد جهالاتهم في غير سورة من هذا الكتاب حتى قيل: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما بعد المئة من سورة الأنعام.

وأما إنه لم يكن له معلم من غيرهم فحسب الباحث فيه أن نحيله على التاريخ وندعه يقلب صفحات القديم منه والحديث والإسلامي منه والعالمي ثم نسأله هل قرأ فيه سطرًا واحدًا يقول: إن محمدًا بن عبد الله بن عبد المطلب لقي قبل إعلان نبوته فلانًا من العلماء فجلس إليه يستمع من حديثه عن علوم الدين ومن قصصه عن الأولين والآخرين؟

ليس علينا نحن أن نقيم برهانًا أكبر من هذا التحدي لإثبات أن

ذلك لم يكن، وإنما على الذين يزعمون غير ذلك أن يثبتوا أن ذلك قد كان، فإن كان عندهم علم فليخرجوه لنا إن كانوا صادقين.

لا نقول إنه -عليه السلام- لم يلق ولم ير بعينه أحدًا من علماء هذا الشأن لا قبل دعوى النبوة ولا بعدها فنحن قد نعرف أنه رأى في طفولته راهبًا اسمه بحيرا في سوق بُصرَى بالشام وأنه لقي في مكة نفسها عالمًا اسمه ورقة بن نوفل وكان هذا على إثر مجيء الوحي العلني له وقبل إعلان نبوته بثلاثين شهرًا كما نعرف أنه لقي بعد إعلان نبوته كثيرًا من علماء اليهود والنصارى في المدينة ولكننا ندَّعي دعوى محدودة نقول: إنه لم يتلقَّ عن أحد من هؤلاء العلماء لا قبل ولا بعد وإنه قبل نبوته لم يسمع منهم شيئًا من هذه الأحاديث ألبتة.

أما الذين لقوه بعد النبوة فقد سمع منهم وسمعوا منه، ولكنهم كانوا له سائلين وعنه آخذين وكان هو لهم معلمًا وواعظًا ومنذرًا ومبشرًا.

وأما الذين رآهم قبلُ فإنَّ أمرَ لقائه إياهم لم يكن سرًا مستورًا، بل كان معه في كل مرة شاهد: فكان عمه أبو طالب رفيقًا له حين رأى راهب الشام وكانت زوجه خديجة رفيقة له حين لقي ورقة، فماذا سمعه هذان الرفيقان من علوم الأستاذين؟ هلَّا حدثنا التاريخُ بخبر ما جرى؟ وما له لا يحدثنا هذا الحديث العجب الذي جمع في تلك اللحظة القصيرة علوم القرآن وتفاصيل أخباره فيما بين بداية العالم ونهايته!! ولماذا لم يتخذ خصومه من هذه الحجة الواضحة سلاحًا قاطعًا لحجته مع شدة سعيهم في هدم دعواه والتجائهم لأوهن الشبهات في تكذيبه وقد كان هذا السلاح أقرب إليهم وكان وحده أمضى في إبطال أمره من كل ما لجئوا إليه من مهاترة ومكابرة.

إن سـكوت التاريخ عن ذلك كله حجـة كافية على عدم وجوده؛ لأنه ليـس من الهنات الهينـات التي يتغاضى عنها النـاس الواقفون لهذا الأمر بالمرصاد.

على أن التاريخ لم يسكت بل نبأنا بما كان من أمر الرجلين: فقد حدثنا عن راهب الشام أنه لما رأى هذا الغلام رأى فيه من سيما النبوة الأخيـرة وحليتها في الكتب الماضية ما أنطقه بتبشـير عمه قائلًا: إن هذا الغلام سـيكون له شأن عظيم. وحدثنا عن ورقة أنه لما سمع مـا قصه عليه النبي من صفة الوحي وجد فيها من خصائص الناموس الذي نزل على موسى ما جعله يعترف بنبوته ويتمنى أن يعيش حتى يكون من أنصاره.

فمـن عـرف للتاريـخ حرمته وآمـن بوقائعه كما هـي كانت هذه الوقائع حجة لنا عليه، ومن لم يسـتح أن يزيـدَ في التاريخ حرفًا من عنـده فيقـول: إن محمدًا ضم السـمَاع إلى اللقاء فليتقوَّل ما يشـاء وليعلمْ أنه سوف يُخْرِجُ لنا بهذه الزيادة تاريخًا متناقضًا يكذب أوله آخرَه وآخرُه أولَه إذ كَيف يعقل أن رجلًا رأى علامات النبوة في امرئٍ فبشره بها قبل وقوعها أو آمن بها بعد وقوعها تُطاوعه نفسه أن يقف من صاحب هذه النبوة موقفَ المرشد المعلم! فأين يذهبون؟!

على أننا نعود فنسـأل: هل كان في العلمـاء يومئذ من يصلح أن تكون له على محمد وقرآنه تلك اليد العلمية؟

يقول الملحدون أنفسـهم: «إن القرآن هو الأثر التاريخي الوحيد الـذي يمثـل روح عصره أصـدق تمثيل» وهذه كلمـة حق في حدود معناهـا الصحيـح[١٥] فنحـن نأخذهـم باعترافهـم وندعوهـم إلـى

(١٥) وهـو أنه يمثلها ولا يتمثلها وإن شئت فقل: إنه يمثلها أصدق تمثيل ثم يمثل بها أنكى تمثيل.

استجلاء تلك الصورة التي حفظها القرآن في مرآته الناصعة مثالًا واضحًا لعلماء عصره فليقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران وما فيهما من المحاورة لعلماء اليهود والنصارى في العقائد والتواريخ والأحكام، أو ليقرءوا ما شاءوا من السور المدنية أو المكية التي فيها ذكر أهل الكتاب ولينظروا بأي لسان يتكلم عنهم القرآن، وكيف يصور لنا علومهم بأنها الجهالات وعقائدهم بأنها الضلالات والخرافات وأعمالهم بأنها الجرائم والمنكرات.

فإن أنت أحببت زيادة البيان فإليك نموذجًا من وصفه وتفنيده لأغلاطهم ومغالطاتهم التاريخية:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٥)

﴿ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ ﴾

(البقرة: ١٤٠)

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾

(آل عمران: ٩٦)

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ ﴾ (آل عمران: ٩٣) [١٦]

وهذا طرف من وصفه وتفنيده لخرافاتهم الدينية:

﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴾

(ق: ٣٨)[١٧]

---

(١٦) وهي رد لدعواهم أن الإبل كانت محرمة على إبراهيم.

(١٧) وهي تكذيب لقولهم: «إن الله بعد أن خلق الخلق في ستة أيام استراح في اليوم السابع».

﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾

(البقرة : ١٠٢)[١٨]

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾

(آل عمران : ١٨١)

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾

(المائدة : ٦٤)

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾

(التوبة : ٣٠)

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾

(المائدة : ١٨)

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾

(المائدة : ٧٢)

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾

(المائدة : ٧٣)

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

(آل عمران : ٦٤)

فانظر كيف صور القرآن عقيدة علماء الدين في زمنه لا سيما علماء النصارى، فقد كان طابع الشرك في ديانتهم لا يخفى على أحد، حتى إن الأميين فطنوا له فاتخذوا منه عزاء لهم في شركهم:

---

(١٨) وهي تبرئة له من زعمهم أنه لم يكن نبيًا بل كان ساحرًا يركب الريح.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾

(الزخرف : ٥٧ ، ٥٨)

بل اتخذوا منه حجة على أن التوحيد الذي دعاهم إليه القرآن بدعٌ في الدين لم يسبق إليه فقالوا :

﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾

(ص : ٧)

يعنون ملة النصرانية . وهذه سلسلة أخرى من جرائمهم يسردها القرآن متواصلة الحلقات :

﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ﴾

إلى أن قال :

﴿وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴿١٥٦﴾ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾

إلى أن قال :

﴿وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴿١٦٠﴾ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ﴾

(النساء : ١٥٥- ١٦١)

فهل ترى في هذا كله صورة أساتذة يَتلقَّى عنهم صاحب القرآن علومَه ؟ أم بالعكس ترى منه معلمًا يصحح لهم أغلاطهم ويَنعِي عليهم سوء حالهم .

لا ننكر أنه كان في أهل الكتاب قليل من العلماء الراسخين . لكن الراسخون في العلم منهم آمنوا بالقرآن وبنبي القرآن :

﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾

(الرعد : ٤٣)

فلو كانوا له معلمين لآمنوا بأنفسهم بدل أن يؤمنوا به.

ولنعدْ مرة أخرى فنسأل: هل كان علم العلماء يومئذ مبذولًا لطالبيه مباحًا لسائليه؟ أم كان حرصهم على هذا العلم أشدَّ من حرصهم على حياتهم، وكانوا يضنون به حتى على أبنائهم استبقاءً لرياستهم أو طمعًا في منصب النبوة الذي كانوا يستشرفون له في ذلك العصر؟

لنستنطق القرآن الذي رضيه الملحدون حكمًا بيننا وبينهم، فإنه يكفينا مئونة الجواب عن هذا السؤال وهاهو ذا يقول لنا: إنهم كانوا في سبيل الضن بكتبهم وعلومهم لا يتورعون عن منكر، فكانوا تارة

﴿يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾

(البقرة: ٧٩)

وتارة

﴿يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾

(آل عمران: ٧٨)

وتارة

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾

(المائدة: ١٣)

وتارة يبترون الكتب فيُظهِرون بعضها ويخفون بعضها

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾

(الأنعام: ٩١)

وتارة يحاجون بمحفوظهم فإذا قيل لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ (آل عمران: ٩٣)، بهتوا؛ فلم يجيبوا، وربما جاءوا بها فقرءوا ما قبل الشاهد وما بعده وستروا بكفهم مكان النص المجادل فيه، كما وقع في قصة الرجم. انظر صحيح البخاري في تفسير الآية الآنفة.

فجاء القرآن يرميهم علنا باللبس والكتمان: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧١)، بل جاء كاشفا لما ستروه مبينا لما كتموه حاكما فيما اختلفوا فيه: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ (المائدة: ١٥)، ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (النمل: ٧٦)، ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: ٦٣، ٦٤).

انظر إلى الآيات من سورتي النحل والنمل المكيتين كيف جعلت من مقاصد القرآن الأساسية بيان ما اختلف فيه أهل الكتاب، بل جعلته أول تلك المقاصد حيث بدأت به، وثنت بالهدى والرحمة للمؤمنين.

ونعود للمرة الثالثة فنقول لمن يزعم أن محمدا كان يعلمه بشر:

قل لنا ما اسم هذا المعلم! ومن ذا الذي رآه وسمعه؟ وماذا سمع منه؟ ومتى كان ذلك؟ وأين كان؟ فإن كلمة (البشر) تصف لنا هذا العالَم الذين يمشون على الأرض مطمئنين؛ ويراهم الناس غادين ورائحين، فلا تسمع دعواها بدون تحديد وتعيين، بل يكون مثل مدعيها كمثل الذين يخلقون لله شركاء لا وجود لهم إلا في الخيال والوهم. فيقال له كما قيل لهم: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ (الرعد: ٣٣)

بل نقول: هل ولد هذا النبي في المريخ، أو نشأ في مكان قصي عن العالم، فلم يهبط على قومه إلا بعد أن بلغ أشده واستوى، ثم كانوا بعد ذلك لا يرونه إلا لماما؟ ألم يولد في حجورهم؟ ألم يكن يمشي بين أظهرهم يصبحهم ويمسيهم؟ ألم يكونوا يرونه بأعينهم في حله ورحيله؟ ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٩)

نعم؛ إن قومه قد طوعت لهم أنفسهم أن يقولوا هذه الكلمة: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ (النحل: ١٠٣)، ولكن هل تراهم كانوا في هذه الكلمة جادين، وكانوا يشيرون بها إلى بشر حقيقي عرفوا له تلك المنزلة العلمية؟ كلا؛ إنهم ما كان يعنيهم أن يكونوا جادين محقين؛ وإنما كان كل همهم أن يدرءوا عن أنفسهم معرَّة السكوت والإفحام، بأية صورة تتفق لهم من صور الكلام: بالصدق أو بالكذب، بالجد أو باللعب.

وما أدراك من هو ذلك البشر الذي قالوا: إنه يعلمه؟

أتحسب أنهم اجترءوا أن ينسبوا هذا التعليم لواحد منهم؟ كلا؛ فقد رأوا أنفسهم أوضح جهلا من أن يعلموا رجلا جاءهم بما لم يعرفوا هم ولا آباؤهم.

أم تحسب أنهم لما وجدوا أرض مكة مقفرة من علماء الدين والتاريخ في عهد البعثة المحمدية عمدوا إلى رجل من أولئك العلماء في المدينة أو في الشام أو غيرهما فنسبوا ذلك التعليم إليه ؟ كلَّا إن ألسنتهم لم تطاوعهم على النطق بهذه الكلمة أيضًا .

فمن ذا إما لا . . ؟

لقد وجدوا أنفسهم مضطرين أن يلتمسوا شخصًا يتحقق فيه شرطان : أحدهما أن يكون من سكان مكة نفسها لتروج عنهم دعوى أنه يلاقيه ويملي عليه بكرةً وأصيلًا . وثانيهما أن يكون من غير جلدتهم وملتهم ليمكن أن يقال : إن عنده علم ما لم يعلموا . وقد التمسوا هذه الأوصاف فوجدوها ، أتدري أين وجدوها ؟ . . في حَدَّاد رومي ! !

نعم وجدوا في مكة غلامًا تعرفه الحوانيت والأسواق ، ولا تعرفه تلك العلوم في قليل ولا كثير غير أنه لم يكن أميًا ولا وثنيًا مثلهم ، بل كان نصرانيًا يقرأ ويكتب . فكان من أجل ذلك خليقًا في زعمهم أن يكون أستاذًا لمحمد ، وبالتالي أستاذًا لعلماء اليهود والنصارى والعالم أجمعين ، ولئن سألتهم هل كان ذلك الغلام فارغًا لدراسة الكتب وتمحيص أصيلها من دخيلها ، وردّ متشابهها إلى محكمها ، وهل كان مزودًا في عقله ولسانه بوسائل الفهم والتفهيم . . لعرفت أنه كان حدادًا منهمكا في مطرقته وسندانه ، وأنه كان عاميَ الفؤاد لا يعلم الكتاب إلا أماني ، أعجمي اللسان لا تعدو قراءته أن تكون رطانةً لا يعرفها محمد ولا أحد من قومه . لكن ذلك كله لم يكن ليحول بينه وبين لقب الأستاذية الذي منحوه إياه على رغم أنف الحاسدين !

هكذا ضاقت بهم دائرة الجد فما وسعهم إلا فضاء الهزل . . .

وهكذا أمعنوا في هزلهم حتى خرجوا عن وقار العقل، فكان مثلهم كمثل من يقول: إن العلم يُستَقى من الجهل، وإن الإنسان يتعلم كلامه من الببغاء! وكفى بهذا هزيمةً وفضيحة لقائله.

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

(النحل: ١٠٣)

نعم، إنهم رأوا في هذا الأسلوب من حلاوة الفكاهة والملحة ما يسيغ مرارة الزور والباطل. ورأوا في هذه الصورة الخيالية من التهكم والسخرية ما يَشفِي صدورهم ويجعلهم يتضاحكون بملء أفواههم، ولكنهم ما دروا أن في طيّ هذه السخرية سخرية بهم، وأنهم قد شهدوا فيها على أنفسهم أنهم أجهل الأمم، وأن كل غريب عنهم -ولو كان غلامًا سوقيًا - أهلٌ لأن يقال عنه إن عنده من العلم ما ليس عندهم فيا له من نطقٍ كان العيّ في موضعه خيرًا لهم وأستر عليهم، ويا له من سلاح أرادوا أن يجرحوا به خصمهم فجرحوا به أنفسهم من حيث لا يشعرون.

أما الحق الذي كانوا يخاصمونه فقد والله زادوه بهذا الاتهام قوة إلى قوته؛ ذلك أنهم حين خرجوا يلتمسون واحدًا من البشر يمكن أن ينسب إليه هذا العلم المحمدي لم يستطيعوا أن يفترضوا له مصدرًا تعليميًا خارج حدود قريته، بل كان آخر جهد بذلوه من حيلتهم وآخر سهم رموه من كنانتهم أن جاءوا من بين ظهرانيهم بهذا الغلام الذي عرفتَ خبره. فياليت شعري لو كان لهذا الغلام أن يكون مرجعًا علميًا كما أرادوا أن يصفوه فما الذي منعهم أن يأخذوا عنه كما أخذ صاحبهم؟ وبذلك كانوا يستريحون من عنائه ويداوونه من جنس دائه، بل ما منع ذلك الغلام أن يُبدِي للعالم صفحته فينال

في التاريخ شـرف الأستاذية، أو يتولى بنفسه تلك القيادة العالمية؟ ويا ليت شعري لماذا لم ينسبوا تلك العلوم الغريبة عنهم إلى أهلها الموسومين بها من الربانيين والأحبار في المدينة أو من القسيسين والرهبان في الشام، أولئك الذين قضوا أعمارهم في دراستها وتعليمها؟ أليس ذلك -لو كان ممكنًا أو شبيهًا بالممكن- كان هو أحسن تلفيقًا وأجود سبكًا وأدنى إلى الرواج وأبعد عن الإحالة من نسبتها إلى حداد مكة؟ أم ضاقت بهم الأرض فلم يجدوا أحدًا أمثل منه ولا أعلم بالدين والتاريخ؟ تالله لولا أنهم وجدوا باب التعليم الخارجي أمنع سدًا من سائر الأبواب وأدخل منها في معنى المكابرة التي لا تروج لما ضيقوا على أنفسهم دائرة الاتهام حتى تورطوا في هذا المحال المكشوف وافتضحوا بهذه المقالة الشوهاء.

هؤلاء قوم محمد ﷺ وهم كانوا أحرص الناس على خصومته، وأدرى الناس بأسفاره ورحلاته، وأحصاهم لحركاته وسكناته، قد عجزوا كما ترى أن يعقدوا صلة علمية بينه وبين أهل العلم في عصره. فما للملحدين اليوم وقد مضى نيف وثلاثة عشر قرنًا انفضَّتْ فيها سوق الحوادث، وجفَّت الأقلام وطويت الصحف، لا يزالون يبحثون عن تلك الصلة في قمامات التاريخ، وفي الناحية التي أنف قومه أن ينبشوها؟

ألا فليريحوا أنفسهم من عناء البحث، فقد كفتهم قريش مئونته وليشتغلوا بغير هذه الناحية التي قضى التاريخ والمنطق على كل محاولة فيها بالفشل فإن أبوا فليعلموا أن كل شبهة تقام في وجه الحق الواضح سيحيلها الحق حجة لنفسه يضمها إلى حججه وبيناته.

ونعود رابعًا وأخيرًا فنقول: لو كانت «نسبة هذه العلوم القرآنية إلى تعليم البشر» من الدعاوى التي تعبر عن فكرة أو شبهة قائمة

بنفس صاحبها لوقف عندها الطاعنون ولم يجاوزوها ؛ ذلك لأن العقل إذا خُلِّي ونفسه في تعليل تلك المفارقة الكلية بين ماضي الحياة المحمدية وحاضرها -أعني ما قبل النبوة وما بعدها- لم يسعْه إلا الحكمُ بأن هذا العلم الجديد وليد تعليم جديد ، وإذ لا عهد للناس بمعلمين في الأرض من غير البشر كان أول ما يخطر بالبال أن هنالك إنسانًا تولَّى هذا التعليم ، فلو وجد الطاعنُ أدنى تُكَأَة من عوامل واقعية أو ممكنة تجعل له شيئًا من الاقتناع بهذا التعليل فيما بينه وبين نفسه لما رضي به بديلًا ولما عدل عنه إلى تعليل آخر أيًا كان ، لكن هؤلاء الطاعنين ما فتئوا منذ نزل القرآن إلى يومنا هذا حائرين في نسب هذا القرآن لا يدرون أينسبونه إلى تعليم البشر كما سمعنا آنفًا ، أم يرجعون به إلى نفس صاحبه كما سمعنا من قبل أم يجمعون له بين النسبتين فيقولون لصاحبه : إنه ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ كما جاء في (سورة الدخان : ١٤) .

ومن تتبع أنواع المجادلات التي حكاها القرآن عن الطاعنين فيه رأى أن نسبتهم القرآن إلى تعليم البشر كانت هي أقل الكلمات دورانًا على ألسنتهم ، وأن أكثرها ورودًا في جدلهم هي نسبته إلى نفس[١٩] صاحبه ، على اضطرابهم في تحديد تلك الحال النفسية

(١٩) وهذا الرأي هو الذي يروجه الملحدون اليوم باسم (الوحي النفسي) زاعمين أنهم بهذه التسمية قد جاءونا برأي علمي جديد، وما هو بجديد، وإنما هو الرأي الجاهلي القديم، لا يختلف عنه في جملته ولا في تفصيله. فقد صوروا النبي ﷺ رجلًا ذا خيال واسع وإحساس عميق فهو إذن شاعر، ثم زادوا فجعلوا وجدانه يطغى كثيرًا على حواسه حتى يخيَّل إليه أنه يرى ويسمع شخصًا يكلمه، وما ذاك الذي يراه ويسمعه إلا صورة أخيلته ووجداناته فهو إذن الجنون أو أضغاث الأحلام على أنهم لم يطيقوا الثبات طويلًا على هذه التعليلات، فقد اضطروا أن يهجروا كلمة (الوحي النفسي) حينما بدا لهم في القرآن جانب الأخبار الماضية والمستقبلة، فقالوا: لعله تلقفها من أفواه العلماء=

التي صدر عنها القرآن: أشعرٌ هي، أم جنون، أم أضغاث أحلام؟
فانظر: كم قلَّبوا من وجوه الرأي في هذه المسألة؟ حتى إنهم لم يقفوا عند الحدود التي يمكن افتراضها في كلام رصين كالقرآن، وفي عقل رصين كعقل صاحبه، بل ذهبوا إلى أبعد الأحوال النفسية التي يمكن أن يصدر عنها كلام العقلاء والمجانين.. إن ذلك لمن أوضح الأدلة على أنهم لم يكونوا يشيرون بهذا الوجه أو ذاك إلى تهمة محققة لها مثار في الخارج أو في اعتقادهم، وإنما أرادوا أن يدلوا بكل الفروض والتقادير مغمضين على ما فيها من مُحالٍ ونابٍ ونافر، ليثيروا بها غبارًا من الأوهام في عيون المتطلعين إلى ضوء الحقيقة، وليلقوا بها أشواكًا من الشك في طريق السائرين إلى روض اليقين.
ولقد نعلم أنهم كانوا في قرارة أنفسهم غير مطمئنين إلى رأي

= في أسفاره للتجارة فهو إذن قد علَّمه بشر.
فأي جديد ترى في هذا كله؟ أليس كله حديثًا مُعادًا يضاهئون به قول جهال قريش؟ وهكذا كان الإلحاد في ثوبه الجديد صورة منسوخة بل ممسوخة منه في أقدم أثوابه، وكان غذاء هذه الأفكار المتحضرة في العصر الحديث مستمدًا من فتات الموائد التي تركتها تلك القلوب المتحجرة في عصور الجاهلية الأولى
﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ (البقرة: ١١٨)
وإن تعجب فعجب قولهم مع هذا كله: إنه كان صادقًا أمينًا وإنه كان معذورًا في نسبة رُؤاه إلى الوحي الإلهي؛ لأن أحلامه القوية صوَّرتْها له وحيًا إلهيًا، فما شهد إلا بما علم وهكذا حكى الله لنا عن أسلافهم حيث يقول:
﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾
(الأنعام: ٣٣)
فإن كان هذا عذره في تصوير رؤاه وسماعه فما عذره في دعواه أنه لم يكن يعلم تلك الأنباء لا هو ولا قومه من قبل هذا، بينما هو قد سمعها بزعمهم من قبل؟ فليقولوا إذن إنه افتراه ليتم لهم بذلك محاكاة كل الأقاويل، ولكنهم لا يريدون أن يقولوا هذه الكلمة لأنهم يدعون الإنصاف والتعقل. ألا فقد قالوها من حيث لا يشعرون.

صالح يرضونه من بيــن تلك الآراء، وأنهم كانوا كلما وضعوا يدهم على رأي منها وأرادوا أن ينســجوا منــه للقرآن ثوبًا وجدوه نابيًا عنه في ذوقهم، غير صالح لأن يكون لَبوسًا له، فيفزعون من فورهم إلى تجربة رأي ثانٍ، فإذا هو ليس بأمثل قياسًا مما رفضوه، فيعمدون إلى تجربة ثالثة.. وهكذا دواليك ما يستقرون على حال من القلق. فإن شئتَ أن تطَّلع على هذه الصورة المضحكة من البلبلة الجدلية فاقرأ وصفها في القرآن

﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ ﴾

(الأنبياء: ٥)

فهــذه الجملــة القصيرة تمثــل لك بمــا فيها مــن توالي حروف الإضراب مقدار ما أصابهم من الحيرة والاضطراب في رأيهم، وتريك من خلالها صورة شــاهد الزور إذا شــعر بحرج موقفه: كيف يتقلب ذات اليمين وذات الشــمال وكيف تتفرق به الســبل في تصحيح ما يحاوله من محال

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾

(الإسراء: ٤٨)

●●●

والآن وقــد جاوزنا بك هاتين المرحلتين من البحث، وأريناك أنه لا يوجــد للقــرآن مصدر إنســاني، لا في نفس صاحبــه ولا عند أحد مــن البشــر، وأنَّ كل من حــاول أن يجعل هذا القرآن عملاً إنســانيًا أعيــاه أمره، وأقــام الحجة على فشــله باضطرابه ولجاجتــه وإحالته ومكابرتــه - فقد وجب علينا أن ننتقل إلــى المرحلة الثالثة لنبحث عــن ذلك المصدر في أفق خارج عن هذا الأفق الإنســاني جملة، وألا نقــف بالقرآن حيث وقف بــه الملحدون قديمًا وحديثًا مذبذبين فيه

بين هذين الطرفين يأخذون بأحدهما تارة وبالثاني تارة، وبهما مجتمعين تارة أخرى، متنقلين هكذا من فاسد إلى فاسد، إلى مركب منهما أشدّ فسادًا من كليهما. كلَّا، فإن العقل يقضي علينا أن نبطل ما أبطله البرهان غير مكابرين، وأن نتابعه في سيره حتى نصل إلى الحق المبين.

أما هؤلاء الملحدون فإنهم ما قعد بهم عن متابعة البحث –زعموا– إلا رعايتهم لحرمة السنن الكونية، ومحافظتهم على الأسباب العادية التي يصدر عنها كلام الناس في معقولهم ومنقولهم، فقد أبى عليهم وفاؤهم لهذه العلوم الطبيعية أن يقتحموا حدودها ويخرجوا إلى التماس شيء لا تناله أعينهم، ولم يجرّبوا مثاله في أنفسهم، وأنت قد عرفتَ أن هذا الذي ظنوه وفاءً بطبيعة الأشياء قد انقلب بهم إلى ضده، إذ خرقوا في سبيله السياجَ الطبيعي للعقل الإنساني وللواقع التاريخي، فجمعوا المتناقضات وغيَّروا معالم التاريخ، وأرهقوا طبائع الأشياء فحمَّلوها ما لا تطيق. فأي عاقل يرضى أن يقف موقفًا كهذا ينصر فيه عادته بإهدار عقله!

بل الحق أن هناك مانعًا آخر يعوقهم عن متابعة السير معنا، ولكنهم يكتمونه عنَّا: كبر في صدورهم أن يعطوا مقادتهم لإنسان جاءهم من فوق رءوسهم يزعم أنه رسول الله إليهم، فيأمرهم وينهاهم ويستوجب الطاعة عليهم، ثم هو على ذلك يواجههم بالحقائق المرة، فيحول بينهم وبين ماضٍ هم به مستمسكون، وهوًى هم له عابدون:

﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾

(المؤمنون: ٧٠)

فلنذرهم قاعدين حيث رضوا لأنفسهم القعود ولنتابع البحث عن هذا الحق راغبين إلى الله في الهدى إليه، وإنا إن شاء الله لمهتدون.

●●●

لا تحسبن أننا في هذه المرحلة الثالثة سنضرب في بيداء تيهاء، أو أننا سيترامى بنا السير إلى شقة بعيدة وسفر غير قاصد. كلّا، فلن نخرج ببحثنا عن دائرة محدودة نراها مظنة للسر الذي نطلبه، وذلك بدراسة الأحوال المباشرة التي كان يظهر فيها القرآن على لسان محمد بن عبد الله -صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله-.

وكلنا نعرف تلك الظاهرة العجيبة التي كانت تبدو على وجهه الكريم في كل مرة حين ينزل عليه القرآن، وكان أمرها لا يخفى على أحد ممن يَنظُر إليه. فكانوا يرونه قد احمرَّ وجهُه فجأة وأخذته البُرَحَاء[٢٠] حتى يتفصد جبينه عرقًا، وثقل جسمه حتى يكاد يرضّ فخذُه فخذَ الجالسِ إلى جانبه وحتى لو كان راكبًا لبركت به راحلته، وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه أصواتًا مختلطة تشبه دوي[٢١] النحل.. ثم لا يلبث أن تسرَّى عنه تلك الشدة فإذا هو يتلو قرآنًا جديدًا وذكرًا محدثًا.

فمن شاء أن يبحث عن مصدر هذا القرآن فهاهنا أقرب مظانه ففيها فليحصر الباحثون بحوثهم، ولينشد طلاب الحق ضالتهم، وأين تُلتَمس الأسباب الصحيحة لأثرٍ ما إن تلتمس حيث يظهر ذلك الأثر، وحيث يدور وجوده وعدمه؟

فلننظر الآن في هذه الظاهرة: هل كانت شيئًا متكلفًا مصنوعًا

(٢٠) البرحاء: الشدة والمشقة، وخص بعضهم به شدة الحمى. لسان العرب ٢/٤١٠.

(٢١) هذه الأوصاف كلها ثابتة في الأحاديث الصحيحة عند الشيخين وأبي داود والترمذي وغيرهم.

وطريقة تحضيرية يستجمع بها الفكر والروية؟ أم كانت أمرًا لا دخل فيه للاختيار؟ وإذا كانت أمرًا غير اختياري فهل كان لها في داخل النفس منشأ من الأسباب الطبيعية العادية، كباعثة النوم، أو من الأسباب الطبيعية الشاذة، كاختلال القوى العصبية؟ أم كانت انفعالًا بسبب خارجيٍ منفصل عن قوى النفس؟

وإنَّ نظرةً واحدةً نلقيها على عناصر هذه الظاهرة لتهدينا إلى أنها لا يمكن أن تكون صناعةً وتكلفًا، وبخاصة لو تأملتَ تلك الأصوات المختلطة التي كانت تُسمَع عند الوجه النبوي الشريف. وأيضًا لو كانت صناعةً وتكلفًا لكانت طوعَ يمينه فكان لا يشاء يومًا أن يأتي بقرآن جديد إلا جاء به من هذا الطريق الذي اعتاده في تحضيره وقد علمت أنه كثيرًا ما التمسه في أشدّ أوقات الحاجة إليه وكان لا يظفر به إلا حين يشاء الله.

فهي إذن حال غير اختيارية.

ثم إننا نرجع البصرَ كرةً أخرى فنرى البُعد شاسعًا بينها وبين عارض السبات الطبيعي الذي يعتري المرء في وقت حاجته إلى النوم، فإنها كانت تعروه قائمًا أو قاعدًا، وسائرًا أو راكبًا، وبكرةً أو عشيًا، وفي أثناء حديثه مع أصحابه أو أعدائه، وكانت تعروه فجأة وتزول عنه فجأة وتنقضي في لحظات يسيرة، لا بالتدريج الذي يعرض للوسنان... وكانت تصاحبها تلك الأصوات الغريبة التي لا تسمع منه ولا من غيره عند النوم، وبالإجمال كانت حالًا تباين حال النائم في أوضاعها وأوقاتها وأشكالها وجملة مظاهرها.

فهي إذن عارض غير عادي.

ثم نرى المباينة التامة والمناقَضة الكلية بينها وبين تلك الأعراض المَرَضية والنوبات العصبية التي تصفرّ فيها الوجوه وتبرد

الأطـراف وتصطك الأسـنان، وتتكشـف العـورات، ويحتجب نور العقـل ويخيم ظلام الجهـل؛ لأنها كانت كما علمت مبعث نموّ في قـوة البدن، وإشـراق في اللون، وارتفاع في درجـة الحرارة، وكانت إلـى جانب ذلك مبعث نور لا ظلمة، ومصدر علم لا جهالة، بل كان يجـيء معها من العلم والنور ما تخضـع العقول لحكمته، وتتضاءل الأنوار عند طلعته.

هانحن أولاء قد كدنا نصل.. فلتقف بنا وقفةً يسيرةً لنرى مبعث هذا الضوء الذي كان يبدو حينًا ويختفي أحيانًا من حيث لا يد لصاحبه في ظهوره ولا في اختفائه: هل عسى أن يكون منبعثًا من طبيعة هذه النفـس المحمديـة؟.. إذن والله لـكان خليقًا أن ينبعـث منها أبدًا، ولكان أحق بأن ينبعث منها في حال اليقظة العادية والروية الفكرية أكثر مما ينبعث منها في تلك اللحظات اليسيرة حينما تغشّيها هذه السحابة الرقيقة التي قد تشبه السنة أو الإغماء فلا بد إذن أن يكون وراء هذه السـحابة مصدر نوراني يمد هذه النفس المحمدية بين آن وآن فيسـمو بها عن أفق شـعرها المحدود، ويزوّدها بما شاء الله من العلوم، ثم يرسلها إلينا محملة بهذه الشحنة العلمية إلى أن يلاقيها مـرة أخرى. وكما آمن الناس بأن نور القمر ليس مسـتفادًا من ذاته، وإنما هو مسـتفاد من ضياء الشـمس؛ لأنهم رأوا اختلاف نوره تابعًا أبـدًا لاختـلاف مواقعه منها قربًـا وبعدًا، فكذلك فليؤمنـوا بأنَّ نور هذا القمر النبوي إنما كان شـعاعًا منعكسًـا من ضوء تلك الشمس التـي يرون آثارها وإن كانوا لا يرونها. نعـم إنهم لم يروها بأعينهم طالعـة في رابعة النهار ولم يسـمعوا صوتها بآذانهم جرسًـا مفهومًا وكلامًـا يفقهـه الناس، ولكنهم كانوا يرون قبسًـا منها في الجبين،

وكانوا يسمعون حسيسها حول الوجه الكريم، وإنَّ في ذلك لهدى للمهتدين.

هي إذن قوة خارجية؛ لأنها لا تتصل بهذه النفس المحمدية إلا حينًا بعد حين، وهي لا محالة قوة عالمة، لأنها توحي إليه علمًا.

وهي قوة أعلى من قوته؛ لأنها تحدث في نفسه وفي بدنه تلك الآثار العظيمة:

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ ﴾

(النجم: ٥، ٦)

وهي قوة خيرة معصومة؛ لأنها لا توحي إلا الحقَّ ولا تأمر إلا بالرشد، فلا جرم أنها لا تكون قوة طائشة شريرة كقوة الجن والشياطين؛ إذ ما للجن وعلم الغيب؟ ولقد

﴿ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾

(سبأ: ١٤)

وما للشيطان وخبر السماء وهي محفوظة من كل شيطان رجيم؟

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٢١١ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾

(الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢)

بل نقول: أليست الأرواح جنودًا مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف. أوليْسَ المرءُ يُعرَف بقرينه، وشبه الشيء ينجذب إليه؟ فكيف تأتلف تلك الأرواح الخبيثة وذلك القلب النقي الطهور؟ أم كيف تأتلف تلك القوى الطائشة وهذا العقل الكامل الرصين؟

﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴾

(الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٣)

فماذا عسى أن تكون هذه القوة إن لم تكن قوة مَلَك كريم؟

ذلك هو مبلغ العلم في وصف هذه القوة الغيبية حسبما يهدي إليه البحث العقلي المستقيم وليس بالمؤمن المقتصد حاجة إلى أكثر من هذا القدر في إرضاء شهوته العلمية، ولا في تثبيت عقيدته الدينية، فمن شاء المزيد من وصفها وحليتها فليس سبيله الرجوع إلى دلالات العقول، وإنما سبيله الرجوع إلى النقل الصحيح عن مهبط سرها ومظهر نورها ﷺ، فهو وحده الذي يستطيع أن يتحدث عن صاحب هذا السر حديث شاهد العيان الذي رأى شخصه وسمع صوته، بل حديث التلميذ الذي جلس إلى أستاذه غير مرة.

فأما الذي يؤمن بالغيب فسيؤمن بهذا الحديث عنه وإن لم يره؛ لأنه رأى أثره، ولأنه يؤمن بمن أخبره. وأما الجاهلون الذين أوتوا قليلًا من علم ظاهر الحياة فظنوا أنهم أحاطوا بكل شيء علمًا فإنهم سيكذّبون بكل ما لم يحيطوا بعلمه، وسيقولون لك: لعله اضطراب في أعصاب البصر خيل إليه أنه يرى شيئًا من لا شيء! وأنت فاستعذ بالله من عمى القلوب والعيون، وقل: كلا

﴿ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾

(النجم: ١٧)

أو يقولون: لعله اضطراب في قوى الفكر صوَّر له المعاني أشباحًا ماثلةً، والأحلامَ حقائقَ مجسمةً! فابرأْ إلى الله من هذا الجنون، وقل: كلَّا

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾

(النجم: ١١)

نعم لقد عجبوا أن يكون إنسانٌ يرى الملائكة عيانًا ويكلمهم جهارًا، بل عجبوا أن يكون في الدنيا خلقٌ لا يرونه بأعينهم، وصوتٌ لا يسمعونه بأذانهم، فقالوا: كيف يرى محمد ما لا نرى، ويسمع ما لا نسمع؟!

ولعمري لنحن أحق أن نعجب من هذا العجب، فإننا نفهم أنه لو ساغ مثله في عصور الجاهلية الأولى ما كان ليسوغ اليومَ وقد ملئتْ الأرضُ بالآيات العلمية التي تفسر لعقولنا تلك الحقائق الغيبية.

وإنَّ من أقرب هذه الآيات إلى متناول الجمهور آية الهاتف (التليفون)، فقد أصبح الرجلان يكون أحدهما في أقصى المشرق والآخر في أقصى المغرب، ثم يتخاطبان ويتراءيان، من حيث لا يرى الجالسون في مجلس التخاطب شيئًا، ولا يسمعون إلا أزيزًا كدويّ النحل الذي في صفة الوحي.

فإن كانوا يريدون آيةً علميةً أوضح من هذه تمثل لهم الوحي تمثيلًا وتريهم من طريق التجارب -التي لا يؤمنون إلا بها- أن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها قد يُحدِث فيها ظاهرةً من جنس هذه الظاهرة وينقش فيها معلومات لم تكن مخزونة في العقل ولا في الحس قبل ذلك، فها قد أراهم الله تلك الآية العجيبة في (أعجوبة التنويم المغناطيسي) فقد أصبح الرجل القوي الإرادة يستطيع أن يتسلط بقوة إرادته على من هو أضعف منه حتى يجعله ينام بأمره نومًا عميقًا لا يشعر فيه بوخز الإبَر، وهنالك يكون رهين إشارته، وتنمحي إرادته في إرادته: فلو شاء أن يمحو من نفسه رأيًا أو عقيدة

لمحاها بكلمة واحدة، بل لو شـاء أن يمحو من صدره اسم نفسه[٢٢] ويلقنه اسمًا آخر يقنعه بأنه هو اسمه لما وجد منه إلا إيمانًا وتسليمًا، ولأصبح اسـمه الحقيقي نسـيًا منسـيًا، ولبقي هذا الاسم المصنوع منقوشًـا على قلبه ولسانه بعد أن يسـتيقظ إلى ما شاء الله. فإذا كان فعل هذا الإنسان بالإنسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة؟

فذلك مثل[٢٣] حامل الوحي ومتلقيه -عليهما السـلام- هذا بشر مطواع ذو روح صافٍ يقبل انطباع العلوم فيه، وذاك مَلَك شديد القوى ذو مرة يحمل إليه رسالته ويُقرئها إياه، فلا ينسى إلا ما شاء الله.

بيد أن بُعدًا شاسـعًا بين هذا الوحي النبوي ووحي الناس بعضهم لبعـض، فالناس كما عرفتَ قد يوحون زخرف القول غرورًا، وكثيرًا مـا يترك وحيهم فـي نفس متلقيـه أعراضًا عقليـة أو بدنية يصعب علاجهـا، فأين هذا من الوحي بين رسـولين مؤيَّديـن اصطفاهما الله لرسـالته: رسـول مـن الملائكة ورسـول مـن الناس؟ فأما الرسـول الملكـي فإنـه كما علمـت لا يوحي إلا الحق، ولا يأمـر إلا بالخير. وأما الرسـول البشـري فإنه لا يزال من بعد كما كان من قبل، ثابت الفؤاد كامل العقل قوي النفس والبدن.

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤)

---

(٢٢) حوادث التنويم المغناطيسي وآثارها البدنية النفسية أكثر من أن تُحصَى، ولكننا أشرنـا بهذا المثال إلى واقعـة كان شاهدَ العيان فيها فاضلٌ من علماء الأزهر (أ. محمد عبـد العظيم الزرقاني) وهو الـذي فطن منها إلى هذه العـبرة الدينية ونشرها بمجلة الهداية الإسلامية في شهر ربيع الأول من عام ١٣٥٢هـ.

(٢٣) تأمـل هـذا التقريب تجد فيه آية أخرى على بطلان دعـوى الوحي النفسي التي يروجها الملحدون؛ إذ إنه من الأركان الأساسية التي أجمع عليها علماء التنويم أنه إنما يكون بين نفسين مختلفتي الطبائع إحداهما أقوى إرادة من الأخرى فلا يستطيع امرؤ أن يقوم بهذه التجربة في نفسه إلا إذا افترضنا اجتماع النقيضين أو أن يكون الواحد اثنين.

وبعدُ، فإننا في هذا المنهج الذي سلكناه من أول البحث إلى هذا الحدّ لم نرد أن نعرض للقرآن في جوهره، بل كان قصارى ما صنعناه أننا درسنا الطريق التي جاء منها: فما وجدنا في اعترافات صاحبه، ولا في حياته الخلقية، ولا في وسائله وصلاته العلمية، ولا في سائر الظروف العامة أو الخاصة التي ظهر فيها القرآن إلا شواهد ناطقة بأن هذا القرآن ليس له على ظهر الأرض أب ننسبه إليه من دون الله.

وتلك كلها دراسات خارجية إنما يسكلها رجل وقف معنا على طرف صالح من هذه الحياة النبوية وملابساتها، وكان مع ذلك سليم الفطرة يتعرف الأشياء بمثالها ويهتدي إليها بأقرب أماراتها فمثل هذا سيرضى منا بهذا القدر ويهتدي به.

وأما الذين لا يعلمون عن تلك الحياة النبوية إلا قليلًا –وكثير ما هم– والذين يريدون أن يأخذوا حجة القرآن لنفسه من نفسه، فهؤلاء لا غنى لهم أن نتقدم بهم خطوة أخرى نبين لهم فيها أن هذا الكتاب الكريم يأبى بطبيعته أن يكون من صنع البشر، وينادي بلسان حاله أنه رسالة القضاء والقدر، حتى إنه لو وُجِد مُلقًى في صحراء لأيقن الناظرُ فيه أنْ ليس من هذه الأرض منبعه ومنبته، وإنما كان من أفق السماء مطلعه ومهبطه.

ذلك أن قدرة الناس وإن تفاوتت فإلى حدود محدودة لا تتعداها، وقدرة الخالق على الممكنات لا حد لها، فكل كائن يجاوز حدود القدرة العالمية واقع في حدود القدرة الإلهية البتة. ولا ثالث.

مثال ذلك: أن الرجل قد يصرع الرجل وقد يصرع الرجلين وقد يصرع الآحاد والعشرات، ولكن هل من الناس من يقف في وجه العالم كله فيقهر الأمم أفرادًا وجماعات؟

والله يأتـي بالشـمس مـن المشـرق فمن ذا الـذي يأتـي بها من المغرب ؟

وأنـت تسـتطيع أن تطفـئ المصبـاح وأن توقـده حيـن تشـاء ، ولكن هل يسـتطيع الناس جميعًا أن يُطلِعوا الشـمس قبل وقتها ، أو يؤخروهـا عن سـاعتها ، أو يطفئوا نورها ، أو يأتـوا بمثلها ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ؟

إنهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له . وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ، فأنَّى لهم أن يضاهئوا تلك الكائنات العلويـة التـي لا تنالها أيديهـم ولا قذائفهم ، والتـي لا يملكون من أمرها سـوى النظر إليها والإعجاب بها والاسـتفادة منها والخضوع لها .

فذلـك العجـز العام عن مضاهاة الخلق وعـن محاكاة الصنعة هو آية كونها ليست من صنع الناس ، وذلك هو الطابع الإلهي والمظهر السماوي الذي تمتاز به صنعة الخالق عن صنعة المخلوق ، وهذا هو المثل الذي نريد أن نطبقه على القرآن الكريم .

غير أن من الناس فريقًا غريقًا في حمأة العناد ، يقولون

﴿ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾

(الأعراف : ١٣٢)

﴿ وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَحَشَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ كُلَّ شَيۡءٖ قُبُلٗا مَّا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(الأنعام : ١١١)

وآخرين لا يجدون طمأنينتهم إلا في اضطراب الشك ، يقولون :

﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴾

(الجاثية : ٣٢)

﴿ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴾

(الحجر : ١٤ ، ١٥)

﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾

(الأنعام : ٧)

فهؤلاء وأولئك لا سبيل لنا عليهم ، ولا ينفعهم نصحنا إن كان الله يريد أن يغويهم ، إذ ليس من شأننا أن نُسمِع الصم أو نهدي العمي ولا الذين يجعلون أصابعهم في آذانهم فإذا هم لا يسمعون أو يضعون أكفهم على أعينهم فإذا الشمس الطالعة ليست بطالعة .

﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا ﴾

(المائدة : ٤١)

وإنما سبيلنا أن ننصب الحجة لجاهلها من طلاب الحق ، ونوضح الطريق لسابلها من رواد اليقين .

ها نحن أولاء ندعو كل من يطلب الحق بإنصاف ، أن ينظر معنا في القرآن من أي النواحي أحبَّ : من ناحية أسلوبه ، أو من ناحية علومه ، أو من ناحية الأثر الذي أحدثه في العالم وغيَّر به وجه التاريخ أو من تلك النواحي مجتمعة - على أن تكون له الخيرة بعد ذلك أن ينظر إليه في حدود البيئة والعصر الذي ظهر فيه ، أو يفترض أنه ظهر في أرقى الأوساط والعصور التاريخية ، وسواء علينا أيضًا أن ينظر إلى شخصية الداعي الذي جاء به أو يلتمس شخصًا خياليًا تجمعت فيه مرانات الأدباء ، وسلطات الزعماء ، ودراسات العلماء بكافة العلوم الإنسانية ثم نسأله : هل يجد فيه إلا قوة شاذة تغلب كل مغالب ، وتتضاءل دونها قوة كل عالم ، وكل زعيم ، وكل شاعر وكاتب ، ثم

تنقضـي الأجيـال والأحقاب ولا ينقضي ما فيه مـن عجائب، بل قد تنقضي الدنيا كلها ولما يُحط الناسُ بتأويل كل ما فيه:

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾

(الأعراف: ٥٣)

فلنأخذ الآن – بعون الله وتوفيقه – في دراسة هذه النواحي الثلاث مـن الإعجاز القرآني: أعني ناحيـة الإعجاز اللغوي، وناحية الإعجاز العلمي، وناحية الإعجاز الإصلاحي التهذيبي الاجتماعي.

ولتكن عنايتا أوفر بناحيته اللغوية؛ لأنها هي التي وقع من جهتها التحدي بالقرآن جملة وتفصيلاً في سورة منه؛ ولذلك نبدأ بها.

القرآن معجزة لغوية

من كان عنده شيء من الشك في هذه القضية فليأذن لنا نستوضحه:

فيم ذلك الشك؟

هل حدثته نفسه بأنه هو يستطيع أن يأتي بكلام في طبقة البلاغة القرآنية؟ أم هو قد عرف من نفسه القصور عن تلك الرتبة، ولكنه لم يعرف عن الناس ما عرف من نفسه؟

أم علم أن الناس جميعًا قد سكتوا عن معارضة القرآن، ولكنه لم يعلم أن سكوتهم عنه كان عجزًا، ولا أن عجزهم جاء من ناحية القرآن ذاته؟

أم علم أنهم قد عجزوا عنه وأنه الذي أعجزهم، ولكنه لم يعلم أن أسلوبه كان من أسباب إعجازه؟

أم هو يوقن بأن القرآن الكريم كان وما زال معجزة بيانية لسائر الناس، ولكنه لا يوقن بأنه كان معجزًا كذلك لمن جاء به؟

أم هو يؤمن بهذا كله، ولكنه لا يدري: ما أسراره وما أسبابه؟

هذه وجوه ستة، لكل وجه منها علاج يخصه وسنعالجها على هذا الترتيب:

١ - فأما إن كان مثار الشبهة عنده أنه زاول شيئا من صناعة الشعر أو الكتابة، وآنس من نفسه اقتدارًا في البيان فوسوس له شيطان الإعجاب بنفسه والجهل بالقرآن أنه يستطيع الإتيان بمثل أسلوبه، فذلك ظن لا يظنه بنفسه أحد من الكبار المنتهين، وإنما يعرض - إن عرض - للأغرار الناشئين.

ومثل هذا دواؤه عندنا نصح نتقدم به إليه أن يطيل النظر في أساليب العرب، وأن يستظهر على فهمها بدراسة طرف من علوم

الأدب، حتى تستحكم عنده ملكة النقد البياني، ويستبين له طريق الحكم في مراتب الكلام وطبقاته ثم ينظر في القرآن بعد ذلك.

وأنا له زعيم بأن كل خطوة يخطوها في هذه السبيل ستزيده معرفة بقدره، وستحل عن نفسه عقدة من عقد الشك في أمره، إذ يرى هنالك أنه كلما ازداد بصيرة بأسرار اللغة، وإحسانًا في تصريف القول: وامتلاكًا لناصية البيان، ازداد بقدر ذلك هضمًا لنفسه، وإنكارًا لقوته، وخضوعًا بكليته أمام أسلوب القرآن وهذا قد يبدو لك عجيبًا أن يزداد شعور المرء بعجزه عن الصنعة بقدر ما تتكامل فيها قوته ويتسع بها علمه، ولكن لا عجب، فتلك سنة الله في آياته التي يصنعها بيديه: لا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذعانًا لعظمتها و ثقة بالعجز عنها، ولا كذلك صناعات الخلق فإن فضل العلم بها يمكنك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها، ومن هنا كان سحرة فرعون هم أول المؤمنين برب موسى وهارون.

فإن أبى المغرور إلا إصرارًا على غروره، وكبر عليه أن يقر بعجزه وقصوره، دعوناه إلى الميدان ليجرب نفسه ويَروز قوته، وقلنا له: أخرج لنا أحسن ما عندك لننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين؟ غير أننا نعظه بواحدة أخرى: ألا يخرج على الناس ببضاعته حتى يطيل الروية ويحكم الموازنة وحتى يستيقن الإحسان والإجادة، فإنه إن فعل ذلك كان أدنى أن يتدارك غلطه ويواري سوءته، وإلا فقد أساء المسكين إلى نفسه من حيث أراد الإحسان إليها.

وإن في التاريخ لعبرًا تؤثر عن أناس حاولوا مثل هذه المحاولة: فجاءوا في معارضة القرآن بكلام لا يشبه القرآن ولا يشبه كلام أنفسهم.

بل نزلوا به إلى ضرب من السخف والتفاهة بادٍ عواره، باقٍ عاره

وشــناره: فمنهم عاقل اســتحيا أن يتم تجربته، فحطــم قلمه ومزق صحيفتــه[٢٤] ومنهــم ماكر وجــد الناس في زمنه أعقــل من أن تروج فيهم ســخافاته، فطوى صحفه وأخفاهــا إلى حين[٢٥] ومنهم طائش برز بها إلى الناس فكان ســخرية للســاخرين، ومثــلًا للآخرين[٢٦]

---

(٢٤) يعــزى شيء من ذلك لابن المقفــع، ولأبي الطيب، وللمعــري، والظن بهؤلاء أنهم كانــوا في غنى بعقولهم وأذواقهم عن الشروع في هذه المحاولة، إلا أن يكون على حد: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ (البقرة: ٢٦٠).

(٢٥) من ذلك ما اشتهر عن تلك الكتب التي وضعها زعماء نحلتي (القاديانية) و(البهائية) لتكــون دستورًا دينيًا لهم كالقرآن، وقد لفقوها تلفيقًــا ركيكًا من آيات قرآنية وكلمات عاميــة، وبدلوا فيها أصول الإسلام وفروعه، وادعوا فيهــا لأنفسهم النبوة أو الألوهية، ولكــن أتباعهم لم يجسروا أن يذيعوا تلك الكتب وشمس العلم طالعة، فأخفوها – كما يخفــي السنور سلحته – إلى أن يجيء وقت يفشو فيه الجهل بالعلوم والآداب وتستعد فيه النفوس لقبول أمثالها فلينتظروا آخر الدهر.

(٢٦) ذلــك مثــل مسيلمة الدجال، فقد زعم أنه يوحى إليــه كلام مثل القرآن، وما صنع شيئًا إلا أنه كان يعمد إلى آي من القرآن فيسرق أكثر ألفاظها ويبدل بعضًا، كقوله: «إنا أعطينــاك الجماهر فصل لربك وجاهر» أو يجيء على موازين الكلمات القرآنية بألفاظ سوقية ومعان سوقية، كقوله: «والطاحنات طحنًا والعاجنات عجنًا والخابزات خبزًا»، وهكــذا لم يستطع وهو عربي قح أن يحتفــظ بأسلوب نفسه، بل نزل إلى حد الإسفاف، وأتــى العبث الذي يأتيه الصبيان في مداعبتهم وتفككهــم بقلب الأشعار والأغاني عن وجههــا ولا يخفى أن هذا كله ليس من المعارضة في شيء، بل هو المحاكاة والإفساد، ومــا مثله إلا كمثل من يستبدل بالإنسان تماثلا لا روح فيه، وهو على ذلك تمثال ليس فيه شيء من جمال الفن، وإنما المعارضة أن تعمد إلى معنى من المعاني فتؤديه نفسه بأسلــوب آخر يوازي الأصل في بلاغته أو يزيد، ومــن يحاول ذلك في المعاني القرآنية فإنما يحاول محالا، والتجربة أصدق شاهد بل من يحاول أن يجيء بمثل أسلوب القرآن في معــان أخرى لا يتحرى فيها الصدق والحكمة فقد طمع في غير مطمع، ولذا كان من طــرق التحدي للعــرب أن طولبوا بعشر سور مثله مفتريات. هــذا والذي نفهمه في أمر مسيلمــة هو ما فهمه الأديب الرافعي: أنه لم يرد أن يعرض للقرآن من ناحية الصناعة البيانيــة، إذ كانت هذه الناحيــة أوضح من أن يلتبس أمرها عليــه، أو أن يستطيع=

فمن حدثته نفسه أن يعيد هذه التجربة مرة أخرى فلينظر في تلك العبر وليأخذ بأحسنها ومن لم يستحْي فليصنع ما يشاء.

٢- وأما إن كان مدخل الشبهة عَنده أنه رأى في الناس من هو أعلى منه كعبًا في هذه الصناعة، فقال في نفسه: «لئن لم أكن أنا من فرسان هذا الميدان، ولم يكن لي في معارضة القرآن يدان: لعل هذا الأمر يكون يسيرًا على من هو أفصح مني لسانًا وأسحر بيانًا» فمثل هذا نقول له: ارجع إلى أهل الذكر من أدباء عصرك فاسألهم هل يقدرون أن يأتوا بمثله؟ فإن قالوا لك: لو نشاء لقلنا مثل هذا، فقل: هاتوا برهانكم، وإن قالوا: لا طاقة لنا به، فقل أي شيء أكبر من العجز شهادة على الإعجاز؟

ثم ارجع إلى التاريخ فاسأله: ما بال القرون الأولى؟ ينبئك التاريخ أن أحدًا لم يرفع رأسه أمام القرآن في عصر من أعصاره، وأن بضعة النفر الذين أنغضوا رءوسهم إليه باءوا بالخزي والهوان، وسحب الدهر على آثارهم ذيل النسيان.

أجل! لقد سجل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن وما أدراك ما عصر نزول القرآن؟ هو أزهى

= تلبيسها على أحد من العرب وإنما أراد أن يتخذ سبيله إلى استهواء قومه من ناحية أخرى ظنها أهون عليه وأقرب تأثيرًا في نفوسهم، ذلك أنه رأى العرب تعظم الكهان في الجاهلية، وكانت عامة أساليب الكهان من هذا السجع القلق الذي يزعمون أنه من كلام الجن، كقولهم «يا جليح أمر نجيح رجل فصيح، يقول لا إله إلا الله - البخاري في المناقب: إسلام عمر» فكذلك جعل يطبع مثل هذه الأسجاع في محاكاة القرآن، ليوهمهم أنه يوحى إليه كما يوحى إلى محمد، كأنما النبوة والكهانة ضرب واحد على أنه لم يفلح في هذه الحيلة أيضًا، فقد كان كثيرون من أشياعه يعرفونه بالكذب والحماقة، ويقولون: إنه لم يكن في تعاطيه الكهانة حاذقًا، ولا في دعواه النبوة صادقاً وإنما كان اتباعهم إياه كما قال قائلهم: «كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر».

عصور البيان العربي، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي وهل بلغت المجامع اللغوية في أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية في ذلك العصر من العناية بلغتها، حتى أدركت هذه اللغة أشدها؛ وتم لهم بقدر الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها؟ ما هذه الجموع المحشودة في الصحراء، وما هذه المنابر المرفوعة هنا وهناك؟ -إنها أسواق العرب تعرض فيها أنفس بضائعهم وأجود صناعاتهم؛ وما هي إلا بضاعة الكلام وصناعة الشعر والخطابة، يتبارون في عرضها ونقدها، واختيار أحسنها والمفاخرة بها، ويتنافسون فيها أشد التنافس، يستوي في ذلك رجالهم ونساؤهم وما أمر حسان والخنساء وغيرهما بخافٍ على متأدب.

فما هو إلا أن جاء القرآن، وإذا الأسواق قد انفضت، إلا منه وإذا الأندية قد صفرت، إلا عنه، فما قدر أحد منهم أن يباريه أو يجاريه، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة، أو حذف كلمة أو زيادة كلمة، أو تقديم واحدة وتأخير أخرى ذلك على أنه لم يسد عليهم باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه، بل دعاهم إليه أفرادًا أو جماعات، بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدي في صور شتى، متهكمًا بهم متنزلًا معهم إلى الأخف فالأخف: فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله، ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله، ثم بسورة واحدة من مثله[٢٧] وأباح لهم في كل مرة أن

---

(٢٧) انظر كيف تنزل معهم في هذه المرتبة من طلب المماثل إلى طلب شيء مما يماثل كأنه يقول: لا أكلفكم بالمماثلة العامة بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المماثلة ومطلقها، وبما يكون مثلا على التقريب لا التحديد وهذا أقصى ما يمكن من التنزل ولذا كان هو آخر صيغ التحدي نزولا، فلم يجئ التحدي بلفظ ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٣) إلا في سورة البقرة المدنية وسائر المراتب بلفظ (مثله) في السور التي نزلت قبل ذلك بمكة: فتأمل هذا الفرق فإنه طريف، وأسأل الله أن يوفقنا وإياك لفهم أسرار كتابه، والانتفاع بهدايته وآدابه.

يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير مواربة فقال:

﴿لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴾

(الإسراء: ٨٨)

وقال

﴿ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ ﴾

(البقرة: ٢٤)

فانظر أي إلهاب، وأي استفزاز! لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد في قوله: ﴿وَلَن تَفۡعَلُواْ ﴾ ثم هددهم بالنار، ثم سواهم بالأحجار فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألداء، وأباة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سلمًا يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا، حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الحتوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعًا عن نفسه بالقلم واللسان.

ومضى عصر القرآن والتحدي قائم ليجرب كل امرئ نفسه، وجاء العصر الذي بعده وفي البادية وأطرافها أقوام لم تختلطْ

أنسابهم، ولم تنحرف ألسنتهم، ولم تتغير سليقتهم، وفيهم من لو استطاعوا أن يأتوا هذا الدين من أساسه، ويثبتوا أنهم قادرون من أمر القرآن على ما عجز عنه أوائلهم لفعلوا، ولكنهم ذلت أعناقهم له خاضعين، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل.

ثم مضت تلك القرون، وورث هذه اللغة عن أهلها الوارثون، غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد، كانوا أشد عجزًا وأقل طمعًا في هذا المطلب العزيز فكانت شهادتهم على أنفسهم مضافة إلى شهادة التاريخ على أسلافهم، وكان برهان الإعجاز قائمًا أمامهم من طريقين: وجداني وبرهاني، ولا يزال هذا دأب الناس والقرآن حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

٣- فإن قال لنا: نعم، قد علمت أنه لم يأت أحد بشيء في معارضة القرآن ولكن ليس كل ما لم يفعله الناس يكون خارجًا عن حدود قدرتهم، فربما ترك الإنسان فعلًا هو من جنس أفعاله الاختيارية لعدم قيام الأسباب التي من شأنها أن تبعث عليه، أو لأن صارفًا إلهيًا ثبّط همته وصرف إرادته عنه مع توافر الأسباب الداعية إليه، أو لأن عارضًا فجائيًا عطل آلاته وعاق قدرته عن إحداث ذلك الفعل بعد توجه إرادته نحوه - فعلى الفرضين الأولين يكون عدم معارضة القرآن قلة اكتراث بشأنه لا عجزًا عن الإتيان بمثله.

وعلى الفرض الأخير يكون تركه عجزًا عنه حقًا، لكن ليس لمانع فيه من جهة علو طبقته عن مستوى القدرة البشرية، بل لمانع خارجي هو حماية[٢٨] القدرة العليا له وصيانتها إياه عن معارضة

(٢٨) هذا هو القول بالصرفة، الذي اشتهر عن النظام من المعتزلة، وهو وإن كان اعترافًا =

المعارضين، ولو أزيل هذا المانع لجاء الناس بمثله.

قلنا له: هذه الفروض كلها لا تنطبق على موضوعنا بحال.

أما الأول فإن الأسباب الباعثة على المعارضة كانت موفورة متضافرة وأي شيء أقوى في استثارة حمية خصمك من ذلك التقريع البليغ المتكرر الذي توجهه إليه معلنًا فيه عجزه عن مضاهاة عملك؟ إن هذا التحدي كاف وحده في إثارة حفيظة الجبان وإشعال همته للدفاع عن نفسه بما تبلغه طاقته فكيف لو كان الذي تتحداه مجبولاً على الأنفة والحمية؟ وكيف لو كان العمل الذي تتحداه به هو صناعته التي بها يفاخر، والتي هو فيها المدرب الماهر وكيف لو كنت مع ذلك ترميه بسفاهة الرأي وضلال الطريق؟ وكيف لو كنت تبتغي من وراء هذه الحرب الجدلية هدم عقائده، ومحو عوائده وقطع الصلة بين ماضيه ومستقبله؟.

وأما الثاني فإن هذه الأسباب قد رأيناها آتت بالفعل ثمراتها، وأيقظت همم المعارضين إلى أبعد حدودها حتى كان أمر محمد والقرآن هو شغلهم الشاغل، وهمهم الناصب، فلم يدعوا وسيلة من الوسائل لمقاومته باللطف أو بالعنف إلا استنبطوها وتذرعوا بها: أيخادعونه عن دينه ليلين لهم ويركن قليلاً إلى دينهم[29]

=في الجملة بصحة الإعجاز إلا أنه لا يقول به إلا أعجمي أو شبهه ممن لم يذق للبلاغة طعمًا ولذلك لم يتابعه عليه تلميذه الجاحظ ولا أحد من علماء العربية، وهو يعد خلاف ما عرفه العرب من أنفسهم كما سنبينه.

(٢٩) جاء رجال من قريش إلى النبي ﷺ فقالوا له: يا محمد تعال تمسح بآلهتنا، أو ألم بآلهتنا، وندخل معك في دينك. فنزل قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ (الإسراء: ٧٣)، رواه ابن مردويه بسند جيد.

أم يساومونه بالمال والملك ليكف عن دعوته[٣٠] أم يتواصون بمقاطعته وبحبس الزاد عنه وعن عشيرته الأقربين حتى يموتوا جوعًا أو يسلموه[٣١] أم يمنعون صوت القرآن أن يخرج من دور المسلمين خشية أن يسمعه أحد من أبنائهم[٣٢] أم يلقون فيه الشبهات والمطاعن أم يتهمون صاحبه بالسحر والجنون ليصدوا عنه من لا يعرفه من القبائل القادمة في المواسم، أم يمكرون به ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه)

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٠)

---

(٣٠) إيماء إلى القصة الطويلة التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ الآيات (الإسراء: ٩٠ – ٩٣)، رواه ابن جرير بسند متصل فيه مبهم، ولها شاهد مرسل صحيح.

(٣١) إيماء إلى خبر الصحيفة الجائرة التي تحالفت فيها قريش وكنانة على بني هاشم وبني المطلب ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله، رواه الشيخان عن الزهري. وفي شأن هذه المحالفة يقول النبي ﷺ في غزوة الفتح وفي حجة الوداع: « منزلنا غدا – إن شاء الله – بِخَيْف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر» رواه الشيخان.

(٣٢) لم يطق أشراف قريش أن يستعلن أبو بكر بقراءة القرآن في فناء داره إذ كانت تهوي إليه أفئدة من أبنائهم ونسائهم وعبيدهم يستمعون لقراءته فخشي المشركون أن يفتتنوا. وكان ابن الدغنة قد أجار أبا بكر فأمروه أن يسترد جواره منه إذا أصر على الإعلان بقراءته. وقد فعل. الحديث رواه البخاري

أم يخاطـرون بمهجهـم وأموالهم وأهليهم فـي محاربته، أفكان هذا كله تشـاغلاً عن القرآن وقلة عناية بشـأنه؟! ثـم لماذا كل هذا وهو قد دلهم على أن الطريق الوحيد لإسـكاته هو أن يجيئوه بكلام مثل الذي جاءهم به؟ ألم يكن ذلك أقرب إليهم وأبقى عليهم لو كان أمـره في يدهم؟ ولكنهم طرقوا الأبواب كلهـا إلا هذا الباب، وكان القتل والأسـر والفقر والـذل كل أولئك أهون عليهم من ركوب هذا الطريـق الوعر الذي دلهم عليه فأي شـيء يكـون العجز إن لم يكن هذا هو العجز؟

لا ريب أن هذه الحملات كلها لم تكن موجهة إلى شـخص النبي وأصحابه؛ فقـد كانوا من قبل تعطفهم عليهـم أرحامهم، وتحببهم إليهـم مـكارم أخلاقهم، كمـا أنها لم تكـن موجهة إلـى القرآن في الصـدور ولا في داخل البيوت؛ فقد قبلوا منهم أن يعبد امرؤ ربه في بيته كيف يشاء إنما كانت مصوبة إلى هدف واحد، ومقاومة لخطر واحد، هو إعلان[٣٣] هذا القرآن ونشره بين العرب.

ولا يهجسـن فـي روعك أنهم مـا نقموا من الإعـلان بالقرآن إلا أنـه دعوة جديدة إلى دين جديد فحسـب، كلا، فقد كان في العرب حنفاء من فحول الخطباء والشعراء؛ كقس بن ساعدة، وأمية بن أبي الصلـت، وغيرهما، وكانت خطبهم وأشـعارهم مشـحونة بالدعوة إلـى مـا دعا إليه القرآن من دين الفطرة فمـا بالهم قد أهمهم من أمر محمـد وقرآنـه ما لم يعنهم من أمر غيره؟ مـا ذاك إلا أنهم وجدوا له شـأنًا آخر لا يشـبه شـأن الناس، وأنهم أحسـوا في قرآنه قوة غلابة

(٣٣) وفي ذلـك يقـول النبي ﷺ حينمـا كان يعرض نفسه علـى النـاس في الموقف: «ألا رجـل يحملنـي إلى قومه؟ فإن قريشًا منعوني أن أبلـغ كلام ربي – رواه أبو داود والترمذي» فانظر قوله: منعوني أن «أبلغ» ولم يقل منعوني أن «أتلو».

وتيارًا جارفًا يريد أن يبسط سلطانه حيث يصل صدى صوته، وأنهم لم يجدوا سبيلًا لمقاومته من طريق المعارضة الكلامية التي هي هِجِّيراهم[٣٤]، والتي هي الطريق المباشر الذي تحداهم به فلا جرم كان الطريق الوحيد عندهم لمقاومته هو الحيلولة بمختلف الوسائل بين هذا القرآن وبين الناس مهما كلفهم ذلك من تضحية، وكذلك فعلوا وكذلك مضت السنة فيمن بعدهم من أعداء القرآن إلى يومنا هذا.

وأما الثالث فإنه لو كان عجزهم عن مضاهاة القرآن لعَارِض أصابهم حال بينهم وبين شيء في مقدورهم، لما استبان لهم ذلك العجز إلا بعد أن يبسطوا ألسنتهم إليه، ويجربوا قدرتهم عليه؛ لأنه ما كان لامرئ أن يحس بزوال قدرته عن شيء كان يقدر عليه كقدرته على القيام والقعود إلا بعد محاولة وتجربة ونحن قد علمنا أنهم قعدوا عن هذه التجربة، ولم يشرع منهم في هذه المحاولة إلا أقلهم عددًا وأسفههم رأيًا، فكان ذلك آية على يأسهم الطبيعي من أنفسهم، وعلى شعورهم بأن عجزهم عنهم عجز فطري عتيد، كعجزهم عن إزالة الجبال، وعن تناول النجوم من السماء، وأنهم كانوا في غنى بهذا العلم الضروري عن طلب الدليل عليه بالمحاولات والتجارب.

على أنهم لو كانوا لم يعرفوا عجزهم عنه بادئ ذي بدء وإنما أدركهم العجز بعد شعورهم بأنه في مستوى كلامهم، لكان عجبهم إذن من أنفسهم: كيف عيوا به وهو منهم على طرف الثمام[٣٥]؟ ولجعلوا يتساءلون فيما بينهم أي داء أصابنا فعقد ألسنتنا عن

---

(٣٤) هجيراهم: دَأبهم.

(٣٥) الثمام: نبت ضعيف قصير لا يطول، والثُّمام: ما يبس من الأغصان. لسان العرب ١٢/٨١.

معارضة هذا الكلام الذي هو ككل كلام؟ أو لرجعوا إلى بيانهم القديم قبل أن يصيبهم العجز فجاءوا بشيء منه في محاذاته ولكنهم لم يجيئوا فيه بقديم ولا جديد، وكان القرآن نفسه هو مثار عجبهم وإعجابهم، حتى إنهم كانوا يخرون سجدًا لسماعه من قبل أن تمضي مهلة يوازنون فيها بينه وبين كلامهم، بل إن منهم من كان يغلبه هذا الشعور فيفيض على لسانه: «ما هذا بقول بشر».

٤ – فإن قال: قد تبينت الآن أن سكوت الناس عن معارضة القرآن كان عجزًا، وأنهم وجدوا في طبيعة القرآن سرًا من أسرار الإعجاز يسمو به عن قدرتهم ولكني لست أفهم أن ناحيته اللغوية يمكن أن تكون من مظان هذا السر، لأني أقرأ القرآن فلا أجده يخرج عن معهود العرب في لغتهم العربية: فمن حروفهم ركبت كلماته ومن كلماتهم ألفت جمله وآياته، وعلى مناهجهم في التأليف جاء تأليفه فأي جديد في مفردات القرآن لم يعرفه العرب من موادها وأبنيتها؟ وأي جديد في تركيب القرآن لم تعرفه العرب من طرائقها ولم تأخذ به في مذاهبها، حتى تقول: إنه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغوية؟

قلنا له: أما أن القرآن الكريم لم يخرج في لغته عن سنن العرب في كلامهم إفرادًا وتركيبًا فذلك في جملته حق لا ريب فيه وبذلك كان أدخل في الإعجاز، وأوضح في قطع الأعذار.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾

(فصلت: ٤٤)

وأما بعد فهل ذهب عنك أن مثل صنعة البيان كمثل صنعة البنيان، فالمهندسون البناءون لا يخلقون مادة بناء لم تكن في الأرض، ولا

يخرجـون في صنعتهم عن قواعدها العامة، ولا يعدو ما يصنعونه أن يكـون جدرانًا مرفوعة، وسـقفًا موضوعة، وأبوابًا مشـرعة ولكنهم تتفاضـل صناعاتهم وراء ذلـك في اختيار أمتن المـواد وأبقاها على الدهر، وأكنها للناس من الحر والقَر، وفي تعميق الأسـاس وتطويل البنيان، وتخفيف المحمول منها على حامله، والانتفاع بالمسـاحة اليسـيرة في المرافق الكثيرة، وترتيب الحجـرات والأبهاء بحيث يتخللهـا الضـوء والهواء فمنهم من يفي بذلـك كله أو جله، ومنهم من يخل بشيء منه أو أشياء، إلى فنون من الزينة والزخرف يتفاوت الذوق الهندسي فيها تفاوتًا بعيدًا.

كذلك ترى أهل اللغة الواحدة يؤدون الغرض الواحد على طرائق شـتى يتفاوت حظها في الحسن والقبول، وما من كلمة من كلامهم ولا وضـع من أوضاعهم بخارج عن مـواد اللغة وقواعدها في الجملة ولكنه حسن الاختيار في تلك المواد والأوضاع قد يعلو بالكلام حتى يسـترعي سمعك، ويثلج صدرك، ويملك قلبك، وسوء الاختيار في شـيء من ذلـك قد ينزل به حتـى تمجه أذنك، وتغثِي منه نفسـك، وينفر منه طبعك.

ذلـك أن اللغة فيها العام والخاص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبيـن، وفيهـا العبارة والإشـارة والفحوى والإيمـاء وفيها الخبر والإنشـاء وفيهـا الجمل الاسـمية والفعلية، وفيهـا النفي والإثبات وفيهـا الحقيقـة والمجـاز وفيهـا الإطنـاب والإيجاز وفيهـا الذكر والحـذف وفيها الابتـداء والعطف وفيها التعريـف والتنكير وفيها التقديم والتأخير وهلم جرًا، ومن كل هذه المسالك ينفذ الناس إلى

أغراضهم غير ناكبين بوضع منها عن أوضاع اللغة جملة، بل هم في شعابها يتفرقون، وعند حدودها يلتقون.

بيد أنه ليس شيء من هذه المسالك بالذي يَجْمُل في كل موطن، وليس شيء منها بالذي يقبح في كل موطن إذن لهان الأمر على طالبه، ولأصبحت البلاغة في لسان الناس طعمًا واحدًا، وفي سمعهم نغمة واحدة، كلا، فإن الطريق الواحد قد يبلغك مأمنك حينًا، ويقصر بك عن غايتك حينًا آخر، ورب كلمة تراها في موضع ما كالخرزة الضائعة ثم تراها بعينها في موضع آخر، كالدرة اللامعة فالشأن إذن في اختيار هذه الطرق أيها أحق بأن يسلك في غرض غرض، وأيها أقرب توصيلًا إلى مقصد مقصد: ففي الجدال أيها أقوم بالحجة وأدحض للشبهة، وفي الوصف أيها أدق تمثيلًا للواقع، وفي موطن اللين أيها أخف على الأسماع وأرفق بالطباع، وفي موطن الشدة أيها أشد اطلاعًا على الأفئدة بتلك النار الموقدة وعلى الجملة أيها أوفى بحاجات البيان وأبقى بطراوته على الزمان.

والأمر في هذا الاختيار عسير غير يسير، لأن مجال الاختيار كثير الشعب، مختلف الألوان في صور المفردات والتراكيب، والناس ليسوا سواء في استعراض هذه الألوان، فضلاً عن الموازنة بينها، فضلًا عن حسن الاختيار فيها، فرب رجلين يهتدي أحدهما إلى ما غفل عنه صاحبه، ويغفل كل منهما عما هدى إليه الآخر، ورب وجه واحد يفوتك هاهنا يعدل وجهين تحصلهما هناك أو بالعكس، وعن جملة الملاحظات التي يلاحظها القائل في قوله، تتولد صورة خاصة مثلها في هذه المركبات المعنوية مثل (المزاج) في تلك المركبات

العنصرية المادية وهذا (المزاج) هو الذي نسميه بالأسلوب أو الطريقة وعلى حسبه يقع التفاوت في درجات الكلام وفي حظه من الحسن والقبول.

فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف المواد، وأمسها رحِمًا بالمعنى المراد، وأجمعها للشوارد، وأقبلها للامتزاج، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها وهي أحق به: بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين لا يومًا أو بعض يوم، بل على أن تذهب العصور وتجيء العصور، فلا المكان يريد بساكنه بدلًا، ولا الساكن يبغي عن منزله حولا، وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب بما هو المثل الأعلى في صناعة البيان.

هذا مطلب له دليله، وإجمال له تفصيله وليس من قصدنا أن نعجلك الآن بالبحث في أدلته وتفاصيله وإنما أردنا أن نزيح عنك هذه الشبهة لتعلم أن ليس كل كلام عربي ككل كلام عربي، وأن هذه الناحية اللغوية جديرة بأن تتفاوت فيها القوى نازلة إلى حد العجز، أو صاعدة إلى حد الإِعجاز.

فإِن أحببت أن تعرف للقرآن الكريم سبقه وبلوغه الغاية في هذا المضمار وأنت بعد لم ترزق قوة الفصل بين درجات الكلام فاعلم أنه لا سبيل لك إلى القضاء في هذا الشأن عن حس وخبرة وإنما سبيلك أن تأخذ حكمه مسلمًا عن أهله وتقنعٍ فيه بشهادة العارفين به وإذن يكون من حقك علينا أن نقدم لك مثالًا من شهاداتهم فخذ الآن هذا المثال:

جـاء الوليد بن المغيرة إلى رسـول الله ﷺ فلمـا قرأ عليه القرآن كأنـه رق له فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال له: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالًا ليعطوكه، فإنك أتيت محمدًا لتتعرض لما قَبله، قـال الوليد: لقد علمـت قريش أني من أكثرها مـالًا. قال: فقل فيه قـولًا يبلـغ قومك أنك منكر لـه وكاره. قال: وماذا أقـول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم مني بالشعر لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن، والله ما يشـبه الذي يقوله شـيئًا من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه، مشـرق أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى وإنـه ليحطم ما تحته. الحديث[٣٦] رواه الحاكم عن ابن عباس وقال صحيح على شرط البخاري.

نعم إن كنت لا تفرق بين كلام وكلام فهذه شـهادة حسـبك من

---

(٣٦) للحديـث بقيـة، وهي أن أبا جهل ألح على الوليـد وقال له: لا يرضى عنك قومك حتـى تقول فيه، فقال الوليد: دعني أفكـر فلما فكر قال: هذا سحر يأثره عن غيره وفي ذلك نزل قوله تعالى:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾

(المدثر: ١١ - ٢٥)

فانظر تصويـر القرآن للجهد العنيف الذي بذله الرجـل في إصدار حكمه العالي حيث يقـول إنه فكر وقدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، ومعنى هذا كله أنه كان يقـاوم فطرته، ويستكـره نفسه على مخالفة وجدانه، وأنـه كان في حيرة وضيق بما يقـول.... وأخـيرًا استطاع أن يقول ما قال نزولا علـى إرادة قومه وانظر الفرق بين هذا الحكم المصطنع وبين حكم البديهة العربية في قوله أول مرة: إنه يعلو وما يعلى وإنه يحطم ما تحته.

شهادة، وناهيك أنها شهادة أهل اللغة أنفسهم، بل شهادة الأعداء لعدوهم.

وإذا لم تر الهلال فسلم ... لأناس رأوه بالأبصار.

وأما إن كنت قد أوتيت حظك من معرفة فروق الكلام والميز بين أساليبه فاقرأ ما شئت من خطب العرب وأشعارها، وحكمها وأمثالها ورسائلها ومحاوراتها، متتبعا في ذلك عصور الجاهلية والإسلام على اختلاف طبقاتها، ثم افتح صفحة من هذا الكتاب العزيز وانظر ماذا ترى؟

أسلوب عجب، ومنهج من الحديث فذ مبتكر، كأن ما سواه من أوضاع الكلام منقول، وكأنه بينها على حد قول بعض الأدباء (وضع مرتجل) لا ترى سابقًا جاء بمثاله، ولا لاحقًا طبع على غراره، فلو أن آية منه جاءتك في جمهرة من أقوال البلغاء لدلت على مكانها واستمازت من بينها، كما يستميز اللحن الحساس بين ضروب الألحان، أو الفاكهة الجديدة بين ألوان الطعام.

٥- سيقول السائل إذا انتهى معنا إلى هذا الموضع: لقد أغلقتم عنا بهذا البيان بابًا من الشك، ولكنكم لم تلبثوا أن فتحتم علينا منه بابًا جديدًا، ألم تقولوا لنا إن هذه الصناعة البيانية ليست في الناس بدرجة واحدة، وإن القوى تذهب فيه متفاوتة على مراتب شتى فما نرى إذن علينا من حرج أن نعد الإعجاز الذي حدثتمونا عنه أمرًا مشاعًا يجري في أساليب الناس كما يجري في القرآن ألا ترون أن كل قائل أو كاتب إنما يضع في بيانه قطعة من عقله ووجدانه على الصورة التي تهديه إليها فطرته ومواهبه؟ وأن اختلاف الناس في هذه الوسائل يتبعه البتة اختلاف طرائقهم في التعبير عن أغراضهم؟

إنكم لتستطيعون أن تحصوا في اللغة العربية صورًا كلامية بعدة الناطقين بها، بحيث لا تجدون كاتبًا يكتب كما يكتب كاتب آخر على السواء، ولا قائلًا كذلك، بل أنتم لا محالة واجدون عند كل واحد منهاجًا خاصًا في الأداء، فليس البدوي كالحضري، ولا الذكي كالغبي وليس الطائش كالحليم، ولا المريض كالسليم وليس الأدنى في هذا الباب يستطيع الصعود إلى الأعلى، ولا الأعلى يستطيع النزول إلى الأدنى، بل المتشابهان فطرة ومزاجًا المتساويان تربية وتعليمًا قد يشربان من كأس واحدة ثم لا يتناطقان بالكلام على صورة واحدة فكيف تأمرون الناس أن يجيئوكم بمثل القرآن وهم لا يقدرون أن يجيء بعضهم بمثل كلام بعض؟ وكيف تعدون عجزهم عنه آية على قدسيته وأنتم لا تعدون عجز كل امرئ عن الإتيان بأسلوب غيره آية على أن ذلك الأسلوب صنع إلهي محض لا كسب فيه للذي جرى على لسانه؟ أليس هذا القياس يسوغ لنا أن نفترض القرآن كلامًا بشريًا كسائر كلام البشر، غير أنه اختص أسلوبه بصاحبه كما اختص كل امرئ بأسلوب نفسه؟

وجوابنا لهذا القائل أن نقول له: لسنا نماريك في أن كلام المتكلم إنما هو صورة تمليها عليه فطرته ومواهبه، ولا في أن هذه الفطر والمواهب لتفاوتها عند أكثر الناس لا بد أن تترك أثرها من التفاوت في صور كلامهم، ولا في أن تلك الفطر والمواهب إن تشابهت عند فريق من الناس فأملت عليهم صورًا متشابهة من القول فإنها لا تخرجها في عامة الأمر صورة واحدة.

كل هذا نسلمه ولا ننكره ولكنه لا يضرنا ولا يوهن شيئًا من حجتنا ذلك أننا حين نتحدى الناس بالقرآن لا نطالبهم أن يجيئونا

بنفس صورته الكلامية كلا، ذلك ما لا نطمع فيه، ولا ندعو المعارضين إليه، وإنما نطلب كلامًا أيًا كان نمطه ومنهاجه، على النحو الذي يحسنه المتكلم أيًا كانت فطرته ومزاجه، بحيث إذا قيس مع القرآن بمقياس الفضيلة البيانية حاذاه أو قاربه في ذلك المقياس وإن كان على غير صورته الخاصة فالأمر الذي ندعوهم إلى التماثل أو المقاربة فيه هو هذا القدر الذي فيه يتنافس البلغاء، وفيه يتماثلون أو يتقاربون وذلك غير المعارض والصور المعينة التي لا بد من الاختلاف فيها بين متكلم ومتكلم. فإن عسر عليك أن تفهم كيف تجيء المماثلة مع هذا الاختلاف ضربنا لك مثلًا: قومًا يستبقون إلى غاية محدودة وقد اتخذوا لذلك مجالًا واسعًا لا يزاحم بعضهم فيه بعضًا، ولا يضع أحدهم قدمه على موضع قدم صاحبه، بل جعل كل منهم يذهب في طريقه الخاص به موازيًا لِقِرْنه في المبدأ والوجهة ثم يكون منهم المجلِّي والمصلِّي، والمقفِّي والتالي[٣٧]، ويكون منهم من لا حظ له في الرهان ويكون منهم المتكافئون المتعادلون، وهكذا تراهم وهم مختلفو المنازل يقع بينهم التماثل كما يقع بينهم التفاضل؛ بنسبة ما قطعه كل منهم من طريقه إلى الغاية المشتركة.

فكذلك المتنافسون في حلبة البيان يعمد كل منهم إلى الغرض من الطريق التي يرضاها، وعلى الوجه الذي يستمليه من نفسه، ثم يقع بينهم التماثل.

أو التفاضل على قدر ما يوفون من حاجات البيان أو ينقصون منها، وإن اختلفت المذاهب التي انتحاها كل منهم.

---

(٣٧) هذه أسماء الخيل في السباق.

هب إذن المدعوين لمعارضة القرآن فيهم الأكفاء والأنداد لنبي القرآن في الفطرة والسليقة العربية، أو من هم أكمل منه فيها، أو هبهم جميعًا دونه في تلك المنزلة. فأما الأعلون فسيجيئون على وفق سليقتهم بقول أحسن من قوله. وأما الأنداد فسيجيئون بشيء مثله، وأما الآخرون فلن يكبر عليهم أن يقاربوا ويجيئوا بشيء من مثله وشيء من هذه المراتب الثلاث[٣٨] لو تم لكان كافيًا في رد الحجة وإبطال التحدي.

ستقول: بل أختار الواقع، وهو أن العرب على اختلاف مراتبهم في البيان لم يرتفعوا إلى طبقة البلاغة المحمدية، وأزعم أن هذا القصور الذاتي الذي قعد بهم عن مجاراته في عامة كلامه هو الذي قعد بهم عن معارضة قرآنه، وإذن لا يكون هذا العجز حجة لكم على قدسية الأسلوب القرآني كما لم يكن حجة عندكم على قدسية الأسلوب النبوي.

فنجيب: أما أن محمدًا ﷺ كان هو أفصح العرب وكان له في هذه الفضيلة البيانية المقام الأول بينهم غير مزاحم فذلك ما لا نماري - بل لا نمتري - فيه نحن ولا أحد ممن يعرف العربية، غير أننا نسأل ما مبلغ هذا التفاوت الذي كان بينهم وبينه؟ أكان مما يتفق مثله في مجاري العادات بين بعض الناس وبعض في حدود القوة البشرية، أم كان أمرًا شاذًا خارقًا للعادة بالكلية؟

فأما إن كان كما نعهد شبيهًا بما يكون في العادة بين البليغ والأبلغ، وبين الحسن والأحسن، فلا شك أن هذا النحو من العلو

---

(٣٨) غير أن المرتبة الأولى مسكوت عنها في القرآن الكريم استقصارًا لهممهم واكتفاء بتعجيزهم عما بعدها.

إن حـال بينهم وبين المجيء بمثل كلامه كله لم يكن ليحول بينهم وبين قطعة واحدة منه، ولئن أعجزهم هذا القدر اليسـير أن يحتذوه علـى التمام لم يكـن ليعجزهم أن ينزلوا منه بمكان قريب. ألا وإننا قد أرخينا لهم العنان في معارضة القرآن بهذا أو ذاك، وأغمضنا لهم فيما يجيئوننا أن يكون كلا أو بعضًا، وكثيرًا أو يسـيرًا، ومماثلًا أو قريبًا من المماثل، فكان عجزهم عن ذلك كله سواء.

وأمـا إن قيل: إن التفـاوت بينه ﷺ وبين سـائر البلغاء كان إلى حـد انقطـاع صلتهم به جملة، لاختصاصه من بيـن العرب ومن بين الناس بفطرة شـاذة لا تنتسـب إلى سائر الفطر في قليل ولا كثير إلا كما تنتسـب القدرة إلى العجز، أو الإمكان إلى الاسـتحالة فلا شك أن القول بذلك هو أخو القول بأن من الإنسـان ما ليس بإنسـان، أو هو التسليم بأن ما يجيء به هذا الإنسان لا يكون من عمل الإنسان. ذلك أن الطبيعة الإنسـانية العامة واحدة. والطبائع الشـخصية تقع فيها الأشباه والأمثال في الشيء بعد الشيء وفي الواحد بعد الواحد؛ إن لـم يكن ذلـك في كل عصر ففـي عصور متطاولـة، وإن لم يكن فـي كل فنون الـكلام ففي بعض فنونـه. وكم رأينا مـن أناس كثيرة تتشـابه قلوبهم وعقولهم وألسـنتهم فتتوافـق خواطرهم وعباراتهم حينًـا، وتتقارب أحيانًا، حتى لقد يخيل إليك أن الروح السـاري في القولين روح واحد، وأن النفس هاهنا هو النفس هناك. وكذلك رأينا من الأدباء المتأخرين من يكتب بأسلوب ابن المقفع وعبد الحميد، ومن يكتب بأسلوب الهمذاني والخوارزمي، وهلم جرا.

فلو كان أسـلوب القرآن من عمل صاحبه الإنسان لكان خليقًا أن يجيء بشيء من مثله من كان أشبه بهذا الإنسان مزاجًا، وأقرب إليه هديًا وسـمتًا، وألصق بـه رحمًا، وأكثر عنه أخـذًا وتعلمًا. أو لكان

جديرًا بأصحابه الذين نزل القرآن بين أظهرهم فقرأوه واستظهروه، وتذوقوا معناه وتمثلوه. وترسموا خطواته واغترفوا من مناهله أن يدنوا أسلوبهم شيئًا من أسلوبه على ما تقضي به غريزة التأسي، وشيمة نقل الطباع من الطباع. ولكن شيئًا من ذلك كله لم يكن، وإنما كان قصارى فضل البليغ فيهم كما هو جهد البليغ فينا أن يظفر بشيء يقتبسه منه في تضاعيف مقالته ليزيدها به علوًا ونباهة شأن.

بل نقول لو كان الأسلوب القرآني صورة لتلك الفطرة المحمدية لوجب على قياس ما أصلته من المقدمات أن ينطبع من هذه الصورة على سائر الكلام المحمدي ما انطبع منها على أسلوب القرآن، لأن الفطرة الواحدة لا تكون فطرتين، والنفس الواحدة لا تكون نفسين[٣٩] ونحن نرى الأسلوب القرآني فنراه ضربًا وحده، ونرى

(٣٩) هنا موضع سؤال فكأننا بقائل يقول لنا: إنه ليس بدعًا من الأمر أن يكون للرجل البليغ ضربان من الكلام، أحدهما يجيئه على البديهة فيرسله إرسالا غير معني بتهذيبه وتحبيره، والآخر يتأتى له بالروية ويحتفل به احتفالا يجعل بينه وبين الضرب الأول بعدًا شاسعًا يخيل للسامع أنه قول شخص آخر مع صدور القولين عن قائل واحد. فهلا طبقتم هذا المثل على الكلام المحمدي فجعلتم حديثه من الضرب الأول وقرآنه من الضرب الثاني؟

والجواب أن توزيع هذين الضربين على الحديث والقرآن توزيع لا يتفق والواقع في شيء، فقد كان أكثر الوحي القرآني يجيء إلى النبي ﷺ في شأن لم يسبق له عهد به ولم يتقدم منه تفكير فيه، بل كان يفاجئه من فوره على غير توقع وانتظار، جوابًا لسؤال سائل، أو فتيًا في حادثة نزلت، أو قصصًا عن أمة مضت، أو ما إلى ذلك. وقليلا ما كان يجيئه بعد تشوف وتلبث تمكن فيه الروية، كما في مسألة الإفك ومسألة تحويل القبلة. وقد رأينا أسلوبه في كلتا الحالين فإذا نسقه هو نسقه ونظامه هو نظامه. وكذلك نقول إن كلامه النبوي كانت تختلف عليه هذه الظروف ويتحد فيها أسلوبه. فقد كان يتكلم أحيانًا بعد تفكير طويل وروية وتشاور مع أصحابه كما رأينا من حديثه في مسألة الإفك، وكما نرى من حديثه بعد التشاور في شئون الحرب والصلح ونحوها. وأحيانًا بعد تلبث يسير انتظارًا للوحي كما في قصة الرجل الذي جاء في الجعرانة سنة ثمان=

الأسلوب النبوي فنراه ضربًا وحده لا يجري مع القرآن في ميدان

= فسأل عن العمرة وهو متضمخ بالطيب وعليه جبة فنظر إليه النبي ساعة ثم سكت حتى جاءه الوحي، فلما سُري عنه قال: أين السائل عن العمرة. فجيء به، فقال ﷺ أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات، وأما الجبة فانزعها واصنع في عمرتك ما تصنع في حجك. رواه الشيخان، وأخرى كان يتكلم على البديهة فيما لا يشكل عليه أمره مما سبقت به قضية العقل أو الدين. وهو في كل ذلك يجري كما ترى على نمط واحد لا تستطيع أن تميز في أسلوبه بين ما كان معناه مدبرًا بالرأي وما كان معناه معلمًا بالوحي. ولا بين ما يرسله إرسالا في حديثه مع أهله وأصحابه وما يحتفل به احتفالا في الجموع المحشودة والأيام المشهودة. فتبين بطلان ما اعتمده السائل من تفرقة بين القرآن والحديث على هذا النحو. بل إننا لو ذهبنا إلى أبعد من ذلك وافترضنا جدلا صحة هذا التقسيم لما صلح أساسًا يقوم عليه بنيان الشبهة، لأن انقسام الكلام إلى المرسل على البديهة والمزور بالروية ما كان ليتفاوت به منهج الكلام عند العرب الخلص، هذا التفاوت البعيد الذي يظن فيه أنه قول قائلين. وإنما ظهر هذا التفاوت منذ انقرض أهل السليقة العربية. ونبتت نابتة المولدين الذين أخذوا هذه اللغة عن غير أمهاتهم فكانت لغتهم التي بها يتكلمون غير اللغة التي بها يكتبون وهكذا أمكن أن يكون لكل منهم أسلوبان متباينان، ينزل بأحدهما إلى العامية الطبيعية ويصعد بالآخر إلى العربية المكسوبة. أما العربي القح فإنه في عامة أمره ما كان يزيده التفكير والتقدير والروية إلا استيعابًا لأطراف الحديث واستكمالا لمقاصده، ولم يكن ذلك ليخرجه عن أسلوبه وطريقته ولغته الخاصة التي يألفها طبعه وتفيض بها سجيته وهي اللغة التي يحتذيها أهل الفن منا بعد محاولة ومعالجة. ولئن كان فيهم قليل ممن يريد القول على غير سجيته ويتعمل له ما ليس من عادته في كلامه، لقد كان هذا التكلف غير مخرج له عن حدود مذهبه جملة. بل كان يترك في غضون حديثه ما ينم على روحه ومشربه. على أن الكلام بعد تلك المعاناة لم يكن ليزداد فصاحة وحسنًا. بل كان ينزل في هذا الباب بقدر ما يحسب الحاسب أنه يصعد فيه. ومن هنا كانت العرب تتمادح بالأمر يجيء طبعًا لا تكلفًا. ولم يكن النبي ﷺ في شيء ما من المتكلفين بل كان أشد الناس كراهية للتكلف في الكلام وغيره. وكان يقول: «هلك المتنطعون» رواه مسلم وأبو داود، والتنطع في الكلام: التعمق فيه والتفاصح. وانظر ذمه للرجل الهذلي حين خاصم في دية الجنين فقال: يا رسول الله كيف أغرم دية من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل؟ فمثل ذلك يطل أي يهدر دمه. فقال رسول الله ﷺ إنما هذا من إخوان الكهان من أجل سجعه الذي سجع. رواه الشيخان وغيرهما. وفي رواية: أسجع كسجع الأعراب؟ وفي أخرى: أسجع الجاهلية وكهانتها؟ فذم هذا النوع من السجع وهو ما كان كسجع الكهان مصنوعًا غير مطبوع. وكان المعنى فيه تابعًا للفظ وليس اللفظ تابعًا للمعنى.

إلا كما تجري محلقات الطير في جو السماء لا تستطيع إليها صعودًا. ثم نرى أساليب الناس فنراها على اختلافها ضربًا واحدًا لا تعلو عن سطح الأرض فمنها ما يحبو حبوًا، ومنها ما يشتد عدوًا. ونسبة أقواها إلى القرآن كنسبة هذه (السيارات) الأرضية إلى تلك (السيارات) السماوية!

نعم لقد تقرأ القطعة من الكلام النبوي فتطمع في اقتناصها ومجاراتها كما تطمع في اقتناص الطائر أو مجاراته، ولقد تقرأ الكلمة من الحكمة فيشتبه عليك أمرها: أمن كلمات النبوة هي أم من كلمات الصحابة أو التابعين. ذلك على ما علمت من امتياز الأسلوب النبوي بمزيد الفصاحة ونقاء الديباجة وإحكام السرد. ولكنه امتياز قد يدق على غير المنتهين في هذا الفن. وقد يقصر الذوق وحده عن إدراكه، فيلجأ إلى النقل يستعينه في تمييز بعض الحديث المرفوع من الحديث الموقوف أو المقطوع[٤٠].

أما الأسلوب القرآني فإنه يحمل طابعًا لا يلتبس معه بغيره، ولا يجعل طامعًا يطمع أن يحوم حول حماه، بل يدع الأعناق تشرئب إليه ثم يردها ناكسة الأذقان على الصدور.

كل من يرى بعينين أو يسمع بأذنين إذا وضع القرآن بإزاء غير القرآن في كفتي ميزان، ثم نظر بإحدى عينيه أو استمع بإحدى أذنيه إلى أسلوب القرآن، وبالأخرى إلى أسلوب الحديث النبوي وأساليب سائر الناس، وكان قد رزق حظًا ما من الحاسة البيانية والذوق اللغوي فإنه لا محالة سيؤمن معنا بهذه الحقيقة الجلية، وهي أن أسلوب القرآن لا يدانيه شيء من هذه الأساليب كلها. ونحسب

---

(٤٠) ألقاب اصطلح عليها علماء الرواية: يعنون من المرفوع ما نسب إلى النبي، والموقوف ما نسب إلى الصحابة، والمقطوع ما نسب إلى التابعين.

أنه بعد الإيمان بهذه الحقيقة لن يسعه إلا الإيمان بتاليتها، استدلالا بصنعة ليس كمثلها شيء، على صانع ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. (الشورى: ١١)

٦- فإن كان السائل من طلاب الحق كما وصفنا، وانتهى من بحثه إلى حيث أشرنا، فأبصر وسمع، وقايس ووازن، وذاق ووجد فسوف يتقدم إلينا بكلمته الأخيرة قائلًا: - نعم لقد نثلت كنانة الكلام بين يدي وعجمت سهامها فما وجدت كالقرآن أصلب عودًا ولقد وردت مناهل القول وتذوقت طعومها فما وجدت كالقرآن أعذب موردًا. والآن آمنت أنه كما وصفتموه نسيج وحده، وأنه يعلو وما يعلى، وأنه يحطم ما تحته. غير أنني وقد أدركت من قوة الأسلوب القرآني وحلاوته ما أدركت - لم يزل الذي أحس به من ذلك معنى يتجمجم[٤١] في الصدر لا أحسن تفسيره ولا أملك تعليله. وما زالت النفس بعد هذا وذاك نزاعة إلى درس تلك الخصائص والمزايا التي استأثر القرآن بها عن سائر الكلام، وكان فيها سر إعجازه اللغوي. فهل من سبيل إلى عرض شيء من ذلك علينا لتطمئن به قلوبنا، ونزداد إيمانًا إلى إيماننا؟

نقول: أما الآن فقد والله طلبت منا جسيمًا، وكلفتنا مرامًا بعيدًا لمثله انتدب العلماء والأدباء من قبلنا وفي عصرنا، فحفيت من دونه أقلامهم، ولم يزيدوا إلا أن ضربوا له الأمثال، واعترفوا بأن ما خفي عليهم منه أكثر مما فطنوا له، وأن الذي وصفوه مما أدركوه أقل مما ضاقت به عباراتهم، ولم تقف به إشاراتهم.

(٤١) يتجمجم: يشتبه عليه أمره فيتردد فيه. لسان العرب ١٢/١١٠.

ونحن وقد أفضت إلينا النوبة من بعدهم هل تحسب أننا سنسلك سبيلًا غير سبيلهم فنزعم أننا في هذه العجالة سنبرز لك سر الإعجاز جملة ؟ كلا ، ولا استقراء ما كشفه الناس من جوانبه ، كلا ، ولا استقصاء ما نحسه نحن من تلك الجوانب . وإنما نريد أن نصور لك بعض تلك الخصائص التي تلاقينا من كتاب الله كلما سمعناه أو تلوناه وتدبرناه . لعلك واجد في القليل منها ما لا تجده في الكثير مما يعده الناس ، فإن زادك الناس من ذلك أنواعًا رجونا أن نزيدك من النوع الواحد إقناعًا وانتفاعًا .



الفهرس

***